كامل فرحان صالح

حبّ خارج البرد

رواية

مكتبة نوميديا

دار الحداثة

حبّ خارج البرد

[ابن الماء]

الكتاب: حب خارج البرد "ابن الماء"
المؤلف: د. كامل فرحان صالح
لوحة الغلاف: نور كامل صالح
الطبعة: الأولى
السنة: 2010

ا

دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف: 555291 - 01، ص. ب.: 5636 - 14

بريد الكتروني: básel_salch@yahoo.com

كامل فرحان صالح

حبّ خارج البرد

[ابن الماء]

رواية

ذاكرة الناس
الجزائر

دار الحداثة
بيروت

ISBN 978-9953-509-03-7

... إلى المستقبل:

كن أكثر إنسانية

البداية نيسان 2000 – النهاية اذار 2006

- **كامل فرحان صالح**

- مواليد: كفرشوبا – جنوب لبنان 1969.
- له في الشعر: كنّاس الكلام – دار الحداثة، بيروت، 1993.
- في الرواية: جنون الحكاية (قجدع)، دار الحداثة، بيروت، 2000.
- دراسة (أطروحة دكتوراه): الشعر والدين: فاعلية الرمز الديني المقدس في الشعر العربي. دار الحداثة: بيروت، 2006.

- البريد الالكتروني:

Kamelsaleh@hotmail.com

... ثلاث سنوات وأنا أحتفظ بهذه المدونات التي كتبتها على مدى خمس سنوات.

لن أبحثَ عن سببٍ مقنع لإقدامي اليوم على نشرها.

ربما لأنني شختُ كثيرًا، أو لأنني خائف من أن يجدها أحد ويشوّه كلماتها... أو لأنني خائف من أن تضيع بعد موتي دون أن يعرف أحد حكايتي.

ربما الأخيرة هي الأنسب الآن.

حرتُ في اختيار عنوان مناسب لهذه المدونات؛ عنوان يختزل بكلمة أو اثنتين مسيرة رجل شاهد ذروة التحولات التقنية والعلمية، وفي الوقت نفسه كان شاهدًا، بل مشاركًا في إزاحة الجليد عن المشاعر الإنسانية، والوقوف في العشق واليأس والحنين والخيانة والبكاء والأمل.

وضعتُ أمامي عددًا من العناوين: عاشق خارج البرد، مدينة خارج البرد، أذن البحر، زنبق الماء، زهرة الذهب، ورد الميلاد، ورد الشتاء، أذكر أنني أحببتكِ مرتين، عطر يحوم حول جسدي... غير أنني اخترت أخيرًا عنوان: ابن الماء... ثم ولسبب ما، وعند وضع النقطة الأخيرة، كتبت عنوانا جديدا، دون أن أحذف السباق، وهو: حبّ خارج البرد.

أنا اليوم، أحمل من العمر اثنين وسبعين عامًا، وقد غرفتُ من الحياة حتى فاضت مني. وأخالني أقفُ على حافة نهر جاف، لا ماء فيه، ولا خرير، أو في سلّة تطفو على نهر يجري .. يجري، لا نهاية له.

... وكل ما اشتهيه بعد أن أنتهي من نشر هذه الحكاية... ربما الموت.

كاف شبلي

بيروت، صباح يوم الأحد

18- 1- 2071



بيروت أجمل المدن
الدرّة في تابع فينيقية
فقدت لألأها ورونقها
بناياتها التي تعدّ آيات في فن العمارة
تداعت وسقطت
ولم يبق فيها جدار واقف
لم يثبت منها سوى الاساسات.
(شاعر إغريقي من آسيا الصغرى)

"لا حبيبة لي ولا بيت
لا مكان استقر فيه، أو أعيش
كلّ الأشياء التي أتعلق بها تغتني مني
وتهجرني".
(ريلكه)

لم أتوقع أن ينجح ذلك.

نائمة في الحافظة الزجاجية تبثّ أنفاسها من جديد.

أتأملها وبيننا أمتار قليلة. خائف من الاقتراب أكثر. غير قادر على ملاحظة الدنيا من حولي. الحافظة نافذتي على المجهول.. لا أسئلة، لا كلام من الممكن أن يتشكل في حضرة الحدث، لا شيء سوى صدفة، علّها تعيدني إلى وعي ما يجري!

الحافظة الزجاجية تبدو مزودًا يطفو على مياهي بعد أن التهمني القحط، فمي تبلله أول قطرة، روحي شاسعة بالنور.

هند..

هذا الألم الذي حفرني منذ الغياب.

لم يعد العلم يحفل بلواعج العشاق.. فهو قادر على قلب الموت والحياة معًا.

ها هي هند..

كترمومتر يرتدّ إلى بدايته.. حين كانت الأرض ساخنة افترقنا.. هناك في الثلاثين من عمرها. يحضرها العلم أمشاجًا وليدة.

آه.. أية عاصفة علمية هبّت.

.i

"الأرض صلعاء.. الأرض صلعاء".

دخل مروان إلى بيتي، يردد ما رآه. شرب قليلاً من الماء: "لماذا نقصّ شعر الأرض!".

لم أقل شيئًا، جلست الى جانبه، أستمع الى ما رآه. كان صوته حزينًا، قادمًا من عصور غابرة، كأول صوت طاف فوق الأرض.

مروان جاري في السكن، لم يكن يعلم بما يقوله، ولا يعنيه شخصيا، لكن بعد نجاته من الزلزال، وفي فترات متباعدة، تتملكه رؤى قبل شروق الشمس غالبا، فيخرج من نومه ليرمي على مسامعي "مشاهداته"، ثم يتركني لأبقى أكرر ما قاله طوال اليوم، وأحيانا، طوال أسبوع.

...

"لماذا نقصّ شعر الأرض؟" دوّنت هذا في ذاكرتي، وأنا في بداية الدرب نحو.. "هند".

.ii

"قُتل نحو 12 ألف شخص، وأصيب 13 ألفًا و832 بجروح، وتشرد الآلاف في زلزال بقوة 8.3 درجات على مقياس ريختر، ضرب فجر أمس العاصمة اللبنانية بيروت، الواقعة على شرق ساحل البحر الأبيض المتوسط. وهذا الزلزال الثاني الذي يضرب بيروت في أقل من يومين، وقد حددت مراكز الأرصاد مركزه في وسط المدينة التي تحولت إلى مقبرة ضخمة".

أزحتُ الجريدة من على الطاولة، ووضعتها تحت إبريق الشاي الساخن. أشعلتُ سيجارة، بدأت أرغي الصابون وأفرك به ذقني الطويلة، التي لم أحلقها منذ ستة أشهر.

".. وما زال أكثر من خمسة الاف شخص تحت الأنقاض... شخص مذعور ألقى بنفسه من الشرفة فقتل في منطقة جبيل الواقعة شمال العاصمة، وآخر لقي المصير نفسه في منطقة الشوف الواقعة جنوب شرق بيروت، كما أفادت وكالة سانا السورية عن تضرر أكثر من مائة بناية وانهيار عشرات البيوت في محافظة الجنوب اللبنانية. أحد المدرسين في مدينة بعلبك الواقعة شرق العاصمة شعر بالزلزال بينما كان جالسًا في شقته الواقعة في الطابق الثامن، شاهد الكتب

وهي تتساقط عن الرفوف والباب الزجاجي يتحطم. أراد أن يغادر وزوجته الحامل في شهرها الثامن المبنى لكنه أيقن انه لا يستطيع أن يستقل المصعد. ظل في الشقة ممسكًا بيد زوجته ينتظران الموت.

استمر الزلزال نحو خمسين ثانية وشعرت به دولة فلسطين، وكامل الساحل السوري، وصولاً إلى شواطئ تركيا، كما أفادت المعلومات عن وقوع جرحى في جزيرة قبرص القريبة من الشواطئ اللبنانية وتصدعات حادة في بعض مبانيها. ولم يتوقف الراديو اللبناني الذي يبثّ مؤقتًا من الجنوب اللبناني عن إطلاق نداءات من أجل التبرع بالمال والملابس ومياه الشرب وحاويات التبريد لحفظ الجثث".

انتهيت من حلاقة ذقني، كذلك من شرب الشاي والسيجارة. وانتهيت أيضًا من القراءة الثلاثين أو أكثر للخبر المنشور في الجريدة منذ ستة أشهر يوم الاثنين 2-2-2032م.

وقد قررت، ذاك اليوم، اتلافها.

.iii

جاري العجوز الذي طالما حكى عن اقتراب يوم القيامة، ونهاية الحياة على الأرض، مات قبل أن يشهد ذلك فعلاً، مات ميتة هادئة، خالية من المعاناة، والأنين.. وجدوه ممددًا على سريره الخشبي، يده على صدره، والأخرى سابحة في الفراغ، وعلى الطاولة بجانبه، قرآن مفتوح وكتاب "شمس المعارف الكبرى"، وفنجان عصير "شرش الزلوع"، ومنفضة مليئة بأعقاب السجائر.

كان شغفه بالتنبؤات لا يُوصف، وفي أي مكان وجد، تسمعه يتحدث عن يوم الحساب، علامات الساعة، واقتراب أوان ظهور المهدي المنتظر، ويؤكد أن القيامة كان من المفترض أن تقوم في مطلع الألفية الجديدة، لكن الله رحم البشر، ومنحهم مزيدًا من الوقت ليراجعوا حساباتهم. لكن لا أحد يراجع. والوقت يقترب. العلامات بدأت تظهر. يردد ذلك.. ويمسح يديه بمنديل قال إنه جلبه معه من المدينة المنورة بعد أن مسح به قبر الرسول.

ذات مرة، شاهد في السوق رجلاً يمشي كالنساء، فهرع إليه، وبدأ يصرخ في وجهه: "لماذا تسارعون في النهاية.. لماذا تملأون الأرض فسادًا؟!".

ارتبك الرجل، بعد أن صفعه العجوز حمد وبصق، ولم يجد الرجل نفسه إلا وهو يسارع الخطى للوصول إلى أقرب شرطي، ليحميه من هذا "المعتوه".

انتهى أمر حمد بالتأنيب ودفع غرامة، وتقبيل الرجل على رأسه. وقد بقي بعد تلك الحادثة، يغسل شفتيه يوميًا عشرات المرات ويتعوّذ بالرحمن كلما شاهد نفسه في المرآة، إلى أن ذهب إلى الحج وعاد منه كما ولدته أمه.

حمد مات، وجاره الأربعيني أبو مجد انتحر قبل الزلزال، يوم ضاقت السبل في وجهه، بعد أن طردوه من عمله في مصنع "العرق البشري لتنمية التربة" بسبب السرقة، وبعد أن تثبت بالعين خيانة زوجته. شكّ فيها في البداية بعد أن وشى بها جارهم عبد الله، قائلاً له بصوت خافت:

– راقبها جيدًا.. أنت طيب القلب، و"على نيّاتك"!.

منذ ذاك اليوم فقد أبو مجد صوابه، أصبح يراقبها في كل لحظة من لحظات اليوم، حتى عندما تدخل إلى الحمام. لم يستطع مواجهتها، لم يطرح سؤالاً واحدًا عليها، اكتفى بمراقبتها بصمت، ونيران الشك تلتهم رشده وعقله. كان ضعيفًا أمامها، أحبها ولم تحبه، وقد حاولت خلال فترة حملها بمجد أن تجهضه أكثر من ست مرات، غير أن شيئًا ما كان

يحول دون قيامها بما تنويــه، إذ كانــت تريــد حمــلاً "صــناعيًا"، وهو يريد حملاً طبيعيًا.

قبل أن ينتحر بمسدس جاره عبدالله، قال لها:

- أحببتك.. سرقت من أجلك.. وها أنا أموت بسببكِ..؟

أطلق رصاصة واحدة تجاه قلبه، كانت كفيلة بصعود روحه بسرعة إلى خالقها.

كان ذلك قبل الزلزال بثماني سنوات.

.iv

تذكرتُ ذلك، وضعتُ فخذًا على الأخرى. الأسئلة المربكة تتسلل إلى ثنايا الغرفة، أشهر أسناني المهشمة من مضغ الوقت الصلب، المندلق على حوافي الشرشف العسلي اللون.

ها أنا لا أكمل الحكاية... أرتعدُ كمجرم الفجر، أقتنص نفسًا لأروي رئتي الذابلتين، وصدري المتعب.

كوني ما شئت. أتعبني البحث عنك. أتعبني صداك المتناثر في حنايا منفضتي المتراكمة بالساعات والأيام.

لمَ أقصّ دائما الخطوات؟

لمَ أدور حول البداية، أرغب بالنوافذ والثقوب الضيقة، والشرفات المهترئة؟. كان الديك ينبهني في الساعة الثانية ليلاً من كوابيسي، يجلبها بصياحه إلى نجمة قريبة ترتشفها وتسخر مني.

وحيدًا، هكذا وقتي يا هند.

عالمي سجائر لفٍ، يجلبها لي حسن من ضيعته الجنوبية.

كنت متقلاً بالطموح.. الأميرات.. الأضواء، وأحلام العذارى.

كنت أصغّر الكرة الأرضية لأضمها بأصابعي، وأركلها ساعة أشاء.

كنت وكان العمر رشفة ماء، وحنفية تنــزّ بالصور الملونة، والإطارات المذهّبة بغبار الحيطان.

أقفز من تخوم ذاكرتي، لأتقمص الهزيمة، هزيمة الزلزال، الذي أخذ معه كل شيء، كل شيء، حتى الصباح، واختلاف النهار. أخال أنه يخاطبني بخبث المنتصر: أين أصبحت، يا عاشق الصباحات، والفجر الأزرق؟. يدير لسانه كأفعى "جلجامش"، يسرقني من نفسي، من براءتي الأولى، من هند، ليدنسني بزفت الشوارع المتشققة، وصهيل أوراقي وكتبي وأقلامي النازحة إلى براميل القشور الميتة.

- دعيني أعرف إقامتك..

- تجيء الآن كنبي يدعو للعفّة..

كانت تمارس رغائبها معي، عندما كان عمّها ينام على أغاني عبد الوهاب.

مرة واحدة، قبل الزّلزال بسبعة أيام، تفجرنا أمام البحر، كنت خائفًا، لكن الناس تبسّموا ومضوا.. كانت تتكسر بكبرياء على شواطئ جسدي.

مارست رياضة الصباح معها، وذات مرة رفضتُ أن نلتقط صورة معًا أمام المقاعد المتآكلة.

ما هذا الذي كنت عليه!.

أينفع استحضار الرماد والنفخ فيه ليومض من جديد!.

أدخل الحكاية لأجردها من مائها، أراقب تيبّسها وتفتتها كخبز العمر.

ضاقت هذه الصلوات، باتت رتيبة، جامدة، تمجد الخرائب، وتصلي لنيرون فوق نهر علب الكبريت.

المدينة تضجّ بالصمت، وأنا أراقب ما تبقى من زقزقات العصافير، وناي جاري، وفلاشات الأخبار.

أكره هذا الأخضر المغرور، الطالع من بطن البلاط وحوافي الشوارع، ومن بين تلال الركام.

تتكرر ضحكتها في ذاكرتي، أفرح، أعشق رنينها، وأذكر أنه ذات مرة، قلت لها: "أحبّ رنين ضحكتك أكثر منك".

أتذكر كيف "زعلت" مني، وبقيتُ طوال أسبوع أوضح ما قصدته.

أجزاء متناثرة من مئات المواقف. ولا أقدر إلا على تقديم العزاء لروحي المتناثرة كالشظايا.

دواليب تدفعني إلى كهوف الدوائر، إلى أسئلة الحسرة، وفواكه الندم.

فراش قصير، وقدمان في الفراغ.

الرطوبة والتشقق يقتاتان السقف والجدران، وحديد النافذة اجتاحه الصدأ. لوح من الخشب يسنده حجران، تغطيه صفحات من جريدة

إلكترونية تحمل صورًا لمدينة منكوبة، وبقية الصفحة ملطخة بالبن واللبن ونثار الشاي والسكر.. ورماد السجائر.

صوت خافت يصدر عن راديو صغير مربوط بحبل أبيض رفيع.

حلقت ذقني الطويلة منذ دقائق، أمدّ ساقي إلى الأعلى وأسندها على الحائط. أتقلّب على جنبي الأيمن، على الجانب الأيسر، أنام على ظهري.. على بطني.. قدمان طويلتان تسبحان في فضاء الغرفة. عينان تتأملان الحشيش الطالع بين شقوق البلاط، الجرائد متناثرة في كل مكان، كتب مكدّسة خلف الباب وفي الزوايا، إبريق يغلي.. يغلي.. شخير يمتزج مع لزوجة العرق والحرارة المرتفعة.

.٧

أيهما أجمل الموت أم الحياة!

البيت لم يعد بيتًا، الغرفة الواسعة التي أعيش فيها، تحولت إلى مخزن يفيض بالذكريات، ورجل يعاند الحياة بالتقاط الحكايات المبعثرة في ذاكرته ومسامه وأنفاسه. كأن ما كان مجرد حلم أو سراب انبثق فجأة لتائه في صحراء، يزحف علّه يعبّ قليلاً.. لكن، وكلما اقترب، يختفي كل شيء، وتراه يمرغ وجهه بالرمل الحار.. الحار كهذا الصيف.

جلبة خلف الباب، الجيران يهرولون على الدرج، أقوم متثاقلاً، وعلى فمي ارتسم سؤال وتثاؤب:

- ماذا يحدث لهؤلاء المجانين؟!

أتجه صوب الحمام، أغسل وجهي، أمشي ناحية الباب راميًا ثقلي على خطواتي المتأرجحة، جاري عبد الله الذي نجا من الزلزال بأعجوبة، يهرول على الدرج بملابسه الداخلية، وزوجته هاجر خلفه تستمهله ليرتدي كامل ثيابه، صوت يجلجل في فناء البناية، أو بالأحرى ما تبقى منها:

- الله ينجينا.. الله ينجينا.

أوقفت مجدًا وسألته عمّا يجري، أجابني وهو يتابع هرولته:

بيت أم جميل.. يحترق..

من؟

.. أم جميل.

أعود إلى بيتي، وأضحك، لاعنًا الشيطان: بعد الزلزال أصبحت الحبّة قبّة.

كانت احدى القنوات تحتفي بذكرى الممثلة المصرية فاتن حمامة، عبر عرض سلسلة من افلامها الرومانسية بهدف تذكير الجيل الجديد بـــ "انسانيته"، كما قالت المذيعة، في عصر سيطرت فيه المشاعر الباردة والمصالح على كل شيء. كنت أشاهد الفيلم وأذكر كان بعنوان: "حبيبتي". في ختام الفيلم تقتل سيارة فاتن حمامة قبل أن تلتقي حبيبِها محمود ياسين ليتزوجا. أصبت بحالة كآبة شديدة.

الباب يطرق بقوة، كأن الطارق يئس من وجود أحد في الداخل، صرخت بأعلى صوتي:

– نعم.. نعم.

هرعت إلى الباب، وأنا أتعثر بخفّي.

خالتي التي تحمل من العمر ستين سنة كانت تحمل أيضًا، سلّتين فاضتا بالعنب والتين.. والبيض البلدي. والعرق ينهمر منها كأنبوب امتلأ بالثقوب.

بادرتني بصوت لاهث:

o أين كنت؟ لي على الباب أكثر من ساعة..

ابتسمت:

- ساعة يا خالتي!!

o والله العظيم.. لي أكثر من عشر دقائق..

- الفرق كبير بين الساعة والعشر دقائق؟!

o المهم.. بلا محاضرة الآن.. ساعدني.

ما أن وضعت السلتين على الأرض، حتى علا صراخها:

o ما هذا؟! هذا ليس بيتًا.. هذه زريبة "للطرش"[1]!

تقلصت شفتاي، وبلعت ريقي، وتساءلت في خلدي: "ما الذي أتى بها الآن!".

لم يمضِ على وجود خالتي سارة نصف ساعة حتى شعرت بأنني عدت طفلاً صغيرًا، وبأن البيت الذي أقطن فيه.. عاد بيتًا. ورائحة النظافة بدأت تفوح من جوانبه.

ها هي خالتي تعدّ الطعام بعدما انتهت من ترتيب البيت.

---

* الطرش: لفظة لبنانية عامية كانت متداولة بين أهل الجنوب، ويقصد بها الماعز والغنم والبقر.

أشعر أنني بحاجة لتفسير هذا المعنى كي لا يلتبس على أحد. ولا سيما بعد أن قضينا على مُعظم الثروة الحيوانية. (كاف)

قالت: كنت أعلم، أنني سأجدك على هذه الحالة... استأجر روبوتًا في الأسبوع، ينظف لك البيت.

أكره الروبوت والروبوتات، والذين جلبوها إلى البلد... لكن، على ما يبدو أن وجودها بدأ يتقلص بعد أن دبّ الفقر المدقع بين الناس. وعادوا للجلي والتنظيف والغسيل والكنس بأيديهم.

تقاطعني مستفسرة، فيما تحرك الطبخة على النار:

○ هل عرفت شيئًا عن هند؟

سكون غريب حلّ على الغرفة، ثم ابتعدت عنها قليلاً. بسمة هربية أخذت مكانها على شفتيّ. رأيتني ألفّ سيجارة من علبة التبغ الجديدة التي جلبتها لي خالتي.. كأن لساني عاجزِ عن خلق الحروف لتشكيل جملة أو كلمة.

التقطت صورة هند المركونة جانب السرير، مشيت.. درت في مكاني أحاول أن أجد ثقبًا في هذا السقف يتسع لمرور روحي التي تفيض.

- انتهى الأكل.. تفضل.

.vi

القطار يمر بسرعة بجانب البحر. من خلف الزجاج، يدي تضم يدها الندية الناعمة كصباح في قرية ما زالت ترفض تقنياتنا، قالت:

- ليتني عرفتك من قبل، بل قل قبل أن تولد..

سألتها لماذا؟ ابتسمت بعد أن سحبت "شريحتي" من جيبي:

- كي ألعب بجيناتك الوراثية.

– لكن أهلي لا يملكون المال الكافي لذلك.

- أتنازل عن أجري.

– المشكلة ليست فيما ستأخذينه، فهناك المستشفى والكومبيوتر، كما لا تنسي أنكِ متخصصة سوسيولوجيا جينات... المهم.. ماذا كنت فعلتِ؟

قرّبت شريحتي من عينها، تأملتها.. بدأت تبصّر، ثم قالت لي: ابصم، بصَمت، وقلت:

– فرق بسيط بين التبصير وخريطة الجينات!

- لا يوجد فرق، الاثنان قائمان على اكتشاف ما يحدث في المستقبل..

عادت لتجيب على سؤالي:

- لقد غيّرت رأيي، لن ألعب بالشريحة.. لو فعلت لكنت الآن لست معي.

قبّلتها، والقطار كان يفتح أبوابه في محطة "مرجعيون الجنوب".

سألتني خالتي عن سبب صمتي، بينما كانت تضع البن في الركوة:

- أتذكر عندما أتيت أنت وهند إلى الضيعة منذ سنة تقريبًا؟.

بدون وعي، وجدتني أتنهد: أذكر..

أتمعّن في الصورة المتراخية بين أناملي. تحيطني سحابة من دخان سجائري. أتململ على مقعدي الحجري خلف الطاولة، ضوء القنديل ينير في الداخل، والبيت يغرق بعتمة الليل.

الماضي يخطو بلوحات متواترة، وإشارات مبهمة. أذوي بوحدتي، بعد أن قضى بالزلزال معظم أهلي وأصدقائي، وحبيبتي هند.

أتأمل سقف البيت المتصدّع، المتشح بالسواد، السقف يمتد من جديد أمام عينيّ المغمّستين في التعب والسهر والبكاء، لا أبكي. لا أستطيع، لا مبرر لذلك، كما لا مبرر لكل شيء الآن، الذي كان أصبح وشمًا لا يختفي من ذاتي المتجعّدة بالاتكاء على الذكريات.

السقف لا ينتهي، الصورة تقع على المنفضة أمامي. المقعد الحجري يدور نصف دائرة بحركة آلية. الضوء يتسع ليفضح

المشهد. العتمة يخرقها ضوء آخر غريب، ينسلّ من شقوق النافذة. أستلقي على فنجان القهوة. آخذ شكلاً حميمًا في تضاريس جديدة.

.vii

هل من الممكن ألا تأتي؟ لعلها غاضبة من انتقادي لها حين ذهبت خمس مرات إلى وزارة الكوارث الطبيعية لتقبض تعويضًا عن أضرار الزلزال، ولم يحن دورها؟. لكن، وعلى ما يبدو، أن جارتي هاجر اقتنعت أخيرًا، أن دورها لن يأتي إلا بعد شهر أو أكثر.

أسئلة عديدة تحوم في رأسي، في المنفضة تنطفئ سيجارة أخرى. المقهى يعجّ بالأصوات وسحب الدخان والقهوة، وعطور النساء، وحدي أقبع في الزاوية، أراقب المارة من خلف الزجاج، وأتواصل مع الكمبيوتر أمامي.

لماذا هذا الزجاج يتسع بيننا؟ زجاج بات من المستحيل كسره أو حتى رمي أنفاسك عليه.

أحدهم يتحدث عن زلزال آخر يحتمل أن يضرب المنطقة نفسها من جديد، لكن زميله ينفي ذلك مستشهدًا بتقرير قرأه قبل يومين في جريدة فلسطينية، و"الفلسطينيون دقيقون في تحليلاتهم العلمية" كما يقول.

على الطاولة المجاورة سيدة ترتدي ثوبًا أسود ما انفكت تلعن الحكومة والمسؤولين على تقصيرهم الفاضح في مساعدة المنكوبين.

الرجل الجالس أمامها يحاول اقناعها بأن نصف أعضاء الحكومة قضوا بالزلزال، ومن يدير الدولة، بعد إعلان حالة الطوارئ، لا يتعدون سبعة وزراء، من ضمنهم رئيس الحكومة. تصمت المرأة قليلاً وكأنها اقتنعت، وبعد أقل من دقيقة تعاود الشتم واللعن والتأفف.

تذكرت أبي، الرجل المليء بالطموحات. وأنا أهمّ بسبر أغوار سيرته، لمحت الدكتور سعيد قادمًا من زاوية الشارع، شغلت نفسي بالكمبيوتر، وبعد أن تأكدت من عبوره الشارع، عدت إلى مراقبة المارة القادمين والذاهبين، وإلى أذنيّ تصل أحاديث الجالسين في المقهى. غير أن سعيدًا فتح أمام ذاكرتي نافذة زجاج أخرى.

لم أعِ بنفسي إلا وأنا أسبح في بركة من المشاهد العابرة والسحيقة في الزمن. الزمن يقترب، ويدخل في مشهد بين التعرجات الجبلية أثناء زيارتي إلى المسؤول في حركة العودة إلى الطبيعة. لم أكن متأكدًا يوم ذاك من اسمه، إذ اختلط عليّ الأمر بين اسميّ: عيد أو سعيد.

وصلت بعد مسير نصف ساعة من بيروت التي كانت تودّع الشتاء بعد أن أغرقها أكثر من مرة، فمنذ سبعين سنة أو أكثر، والحكومات المتتابعة لم تفلح في حلّ جذري لتصريف مياه الأمطار.

كان الجبل مازال يحتفظ بهواء وأوكسجين نظيفين، وكثير من الأشجار. وقد تغير الوضع، بعد أن تحول إلى مدينة انتقالية وعاصمة مؤقتة، بسبب زلزال بيروت.

عيد أو سعيد كان يحاضر عن أهمية الحفاظ على الفراشات، ودورها في تزيين الطبيعة والحياة. وبعد خمس وأربعين دقيقة، اقتربت منه بينما كان منهمكًا في اغلاق كمبيوتره الذي كان يقرأ منه، وقدمت نفسي، نظر لي بتساؤل، وكأنه لم يفهم، تابعت موضحًا، أنني مسؤول مكتبة الجامعة التي سيلقي فيها محاضرة بعد يومين.

- أهلاً.. أهلاً، دقائق وأكون معك.

اصطحبني إلى منزله الزجاجي الواقع في منتصف غابة صغيرة.

على الرغم من التطور الهائل الذي أصاب جميع مرافق الحياة، إلا أن زوجة عيد أو سعيد لم تضيّفني إلا "المتّه"، قائلة إنها من تقاليدنا التي نحافظ عليها، ووصفت أنواع الضيافة التي تقدم في البيوت من مشروبات غازية وأشياء أخرى بالنايلون. زوجها قاطع كلامها ونصحني بالابتعاد عن تناول هذه الأنواع المضرّة بالصحّة. هززتُ رأسي موافقًا، على الرغم من أنني كنت سارحًا بابنة أخيه التي كانت تجلس قبالتي.

غرقتُ بمحاضرة أخرى أشدّ من الأولى وأقسى، بدأت عندما سألتُ الزوجة عن سبب عدم وجود روبوت في منزلهم يقوم بالخدمة كما في معظم البيوت، طرحي للسؤال كان عابرًا، ولم أكن أتوقع هجومًا واسعًا على معظم العائلات التي باتت تعتمد في أدق خصوصياتها على الآلة، ما أدى إلى "ترسيخ علاقات متشيئة بين أفرادها"، حسب تعبيرها.

لا عجب من امرأة يقارب عمرها الخمسين، أن تقول هذا الكلام بعدما عرفت أنها تدرّس مادة "تفعيل الحسّ الإنساني لدى النشء" في الجامعة.

عيد أو سعيد واصل "هجومه" بشهادات حسيّة خبرها بنفسه. لم ينقذني من هذا الدفق "الإنساني" سوى سؤال ابنة أخيه، الذي عرفت من خلاله اسمه أخيرًا، وذلك عندما سألته عن عنوان المحاضرة التي سيلقيها في مكتبة الجامعة.

تأملتها كلصّ يخاف أن يفاجئه أحد.

اسمها هند، عمرها يقترب من الثلاثين، تخرجت من الجامعة، اختصاص سوسيولوجيا جينات وراثية. مطلقة، ولها ابن يعيش مع والده في باكستان، حيث يعمل هناك في أحد معامل الذرّة.

سعيد تركنا أنا وهند، بعد أن شاهد حركة كثيفة بين الأغصان، ولكم تمنيت أن يحدث ذلك، وعندما حدث وقام مذعورًا، ليستأذنني

بالخروج لمعرفة ما يحدث، لم أصدق نفسي. صار همّي الوحيد أن أسمع صوت هند، أتأمل شعر هند، أغرق في حضن هند..

بطريقة لم أعد أذكر كيف حدثت، أعطيتها عنواني، وأعطتني عنوانها، وأيضًا، اتفقنا على موعد في مقهى الجامعة بعد يومين.

كان الدكتور سعيد يلقي محاضرته، القاعة حاشدة بالطلاب، وأنا منهمك بمتابعة تسجيل محاضرته على اسطوانة الليزر، بالتنسيق مع المصوّر الذي يلتقط الصور التي استخدمها الدكتور سعيد في الشرح. هند تجلس في الصف الأمامي، تتأملني، وعندما ألتفت لأشاهدها، تدير رأسها بهدوء ناحية عمّها.

كنت أرقص فرحًا من الداخل، على الرغم من المحاضرة المملة التي كان يلقيها عمّها عن أثر النحل في تفعيل دورة حياة الزهور وتلقيحها، وأهمية استخدام ذلك في تفعيل الحياة على سطح كوكب المريخ.

لم أمل إلى العلم، ولم يكن يهمني متابعة التطورات العلمية السريعة التي تجري في العالم، كنت أعود عندما يقلّ عدد رواد المكتبة، إلى قراءة الكتب القديمة، قصائد الحبّ، رواية أدبية، أو إلى دراسة الشعر، في وقت أصبحت فيه العلاقات بين البشر آلية، وتقوم الروبوتات بمعظم المهام، حتى عملية الإنجاب.

ابتسمتْ، رأيتها تبتسم، بعد أن كدتُ أقع عندما تعثرت بأنبوب الماء الملتف قرب الطاولة التي أتابع من ورائها عملية تسجيل المحاضرة.

ابتسمتُ بدوري، شعرتُ ساعتئذٍ، أن مشواري معها قد بدأ.

يحدث ما لم يكن في الحسبان، ابتسامة عريضة تكشف أسنانًا ملوثة بالبن والتبغ والسوس، وعبارة:

- أين أنت يا رجل؟

أرسمُ بدوري ابتسامة مجاملة، وأدعوه إلى الجلوس.

- لم أتوقع رؤيتكَ بعد الزلزال..

- على ما يبدو أنني كالقطط.

- بسبع أرواح.. !

لم أعد أستطيع تمالك نفسي، ولم أجدني إلا وأنا أسأله عن هند، على الرغم من أنني أعرف.

- بحثنا عنها كثيرًا، لم نجد لها أثرًا.. كذلك جاء ابنها من باكستان بعد معرفته بما حدث. بحثنا مرة أخرى، لم نصل الى شيء... في الأيام الأخيرة كانت هيئات الإنقاذ تقوم بحفر مدافن جماعية.

صمت الدكتور سعيد، كأنه لم يعد يقوى على التذكر أو متابعة الكلام. غيّرتُ الموضوع بارتباك ملحوظ، وسألته عن أبحاثه، وهذا

التغير الذي أصابه.. يدخن ويشرب القهوة. تأملني قليلاً، لا لم يكن قليلاً.. كان طويلاً. شعرت بأنه يتكلم من خلال هذا التعب الذي يحمله في وجهه، وفكّرت لماذا كنت أريد تجنب رؤيته؟.

قال، بعد أن ارتشف قهوته، ومجّ سيجارته:

- لعن الله العلم.. لعن الله كل شيء..
- ما بكَ؟ لمَ تقول ذلك؟
- رغم جميع ما ابتكرناه، إلا اننا مازلنا عاجزين عن صنع حبوب للنسيان، عن اكتشاف ماهية الحب الحقيقي.. مازلنا عاجزين عن إعادة الأموات بشكل فعلي صحيح.. ها نحن نعود إلى أواخر القرن العشرين، عندما دمّر المسلحون بيروت، وبعد سنوات تتالت ثورات الجياع، بل نعود إلى زمن الزلزال الكبير الذي هدم أمّ الشرائع.

سألته عن ابن هند، أين هو الآن؟، أخبرني بأنه عاد الى باكستان، الى والده المرتبط بالتزامات يجب أن ينهيها في وقت محدد.

لمحتُ في عينيه تساؤلات لا تنتهي، وفراشة تحاول الخروج من الشرنقة. وقبل أن يغادر المقهى، أخبرني عن اشكالية تؤرقه: "هل الدائرة فراغ، أم الفراغ دائرة".

مشى، ولم أرَه بعد ذلك اليوم.

.viii

عيناي لم تتمكنا من احتواء ما تشاهدانه.

بعد أربعين دقيقة تقريبًا من السير المتواصل، تمتد أمامي، الأبنية المتداعية التي تنمّ عن عراقة كانت هنا. الركام يفترش المكان وشرائح الجينات السائحة تتناثر.. هنا وهناك.. لم تحمل في بياناتها أن حامليها سيموتون بزلزال.

المدن تموت، تتحلل كجثة.

هل ثمة مكان يتسع لهذا الحزن المتصل بالبحر!

منذ أشهر تغيّر كل شيء.. كراقصة أصابها دوار، فهوت على الأرض.. بل تحت الأرض.

لماذا أجيء إلى هنا للمرة العاشرة؟ سألت نفسي.. لم أنتظر جوابًا.

امرأة أشاهدها للمرة السادسة ربما، تبحث هناك، قرب الساعة. شاب طويل اللحية يقلّب الأحجار، يفتش عن شيء ما.. رجال ما زالوا ينقبون بحثًا عن الضحايا والشرائح علّهم يعرفون أسماء أصحابها.. وأنا أحاول معرفة أين رفاتها.. أين

خصلات شعرها الأسود.. أين ذهب الوميض الذي يرتسم في عينيها كقطرات مياه في نهر لم يكتشف بعد.

أبحث عن حبّ أخذه الزلزال معه.

هل ينفع هذا النواح؟

... هذا البحث عن هند؟

أقلّب الركام، أتلمس تناثر الزجاج والحجر والأجساد، أصابعي ترتجف، ما هذا!!. رأس طفلة جاحظة العينين تركن خلف إحدى شاشات الكومبيوتر، عيناها تلمعان في عيني، تنغرزان عميقًا في روحي وذاكرتي، تنساب منهما خيوط جافة لونها أحمر قان. ارتعد، أعود للوراء كطفل يواجه عقاب والدته. أشعر أن البياض اكتسح شعر رأسي وجسدي. أنهار على الأرض، فاقدًا القدرة على الحركة. رأس الطفلة المقطوع اختفى من أمامي.. كأنه لم يكن. لم أجد نفسي متحمسًا لمعرفة أين اختفى، كعادتي دائمًا عندما أواجه مواقف أو رؤى في ليالي الشتاء.

ساعة مرّت، ربما أكثر، ألملم أطرافي وأعاود البحث عن شيء من هند.

كانت هنا.. لا، ربما هنا.. لعلها اشترت أدوات المختبر وسارت من هنا.. بل من هنا.. ثمة آثار خطوات على هذا الرماد.. لعلها خطواتها.. أقلب الحجارة.. أكنس بقايا الزجاج المنتشر في الأمكنة

التي أظن أنها مرّت بها.. فجأة أقفز من مكاني عندما أخالها تحت قدميّ.. أتلفت بسرعة.. أبحث بعناد عن إبرة في مدينة، أو ما تبقى من مدينة.

ها أنا أنهار للمرة العاشرة، أتربع على تلّ الركام، وأحاول أن أبكي.

كانت غاضبة مني، لأنني لم أخبرها مسبقًا أنني ذاهب إلى الحجاز للمشاركة بدورة تدريبية مكثّفة في علم المكتبات الإلكترونية لمدة ثلاثة أيام.

كانت تحضّر بحثًا عن الجينات لتلقيه في جامعة حيفا، وكان من المقرر أن نذهب معًا، ونقضي يومين على شاطئ حيفا. حاولت أن أوضح لها، لكن.. الوقت لم يكن كافيًا.. عادت قبل رجوعي بيوم واحد، ورحلتْ إلى السماء، فيما كان القطار السريع يقلّني من جدّة المتناثرة على البحر الأحمر إلى بيروت.

هل ثمة عذاب يفوق ما أشعر به!

تحسستُ الخاتمين في جيبي، اشتريتهما في طريق عودتي.. ترنّ في رأسي تمنيات صاحب المحل.. "بالتوفيق".

أشمّ عطرها الآن، العطر الذي كانت توصي بإحضاره من كراتشي، أشمّه بقوة، يحوم حول جسدي، يتغلغل في مساماتي.. ينغرز عميقًا في روحي.. وأخرّ كمحارب شريف هزم في معركة.

- هند.. هل أنت هنا!

ثمة ورقة تلمع بين الركام، انحنيت لالتقطها:

- *خبر عاجل*

** أوردت وكالتا رويترز و(أ ف ب) في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 2000م، في خبر عاجل من رام الله / الضفة الغربية ما يلي:*

"علم من مصدر طبي أن الطفل كاف شبلي البالغ من العمر سلتين، قتل اليوم الثلاثاء برصاص الجيش الإسرائيلي أثناء مواجهات وقعت في بلدة رام الله.

وهذا أول قتيل يسقط في اشتباكات بعد أن أغلق.....".

أصابني الذهول، بدأت أتحسس أطرافي، وسؤال يلج في رأسي: هل أنا حيّ؟

أقصوصة الورق هذه ربما كانت لإحدى مراكز الأرشيف، أو لمركز معلومات لإحدى الصحف، غير أنها أيقظت رؤيا طالما ظننتها حقيقة، وهي أنني كنت حيًا في الماضي، وسأكون كذلك في المستقبل.

الجثث مرتبة في صفوف متساوية. كان يلزمني عشرات الأيام، لأن أتفحصها كلها بحثًا عن هند، إلا أنني أصبت باعياء شديد عندما بدأت أقلب في الجثث الثلاث الأولى... لم أقدر على مواصلة البحث.

الرائحة نتنة، الأجساد ممزقة، الوجوه باردة.. ملطخة بالدم والغبار والخوف.. الجثث امتدت كخيط طويل لا آخر له، انهرت منذ بداية الخيط، لا قدرة لي على هذا المشهد.

لجان الاغاثة بذلت جهودًا شاقة في حصر عدد القتلى، ونقل الناجين الى المراكز الطبية، ومحاولتها المستحيلة لرفع الأنقاض، ورغم ذلك، كانت تتعرض لانتقادات شديدة من الناس، ولا سيما من أهالي الضحايا وأصدقائهم.

ماذا يمكن أن يفعل البشر أمام غضب الطبيعة!.

وجدت نفسي متعاطفًا مع هذه اللجان. حاولت وفشلت في تفحص الجثث التي جاهدوا في انتشالها من المكان، وترتيبها كي يتمكن الناس من التعرف الى جثث أقاربهم أو أهلهم.. جيرانهم.. أصدقائهم.. رجالهم.. نسائهم.. أطفالهم وأحبتهم.... كنت أعرف ماذا يعني أن تكون مهمتك تلمس الأجساد الميتة.. التقاط الأشلاء ووضعها في أكياس.

أقف بعيدًا، أنزع عن أنفي الكمامة، محاولا التنفس، ومسح غصة تربعت على حلقي.

هل وجدت أحدًا؟ سألني أحدهم كان عائدًا من بين الجثث بحثًا عن أحد يعرفه.

أومأت برأسي الى الأعلى. ومضيت.

.ix

دخل مروان الى بيتي مذعورا، قال لي وهو يرتجف:

- رأيته، رأيته..

لم أدرك ما يقوله، كان همي لحظتذاك أن أساعده ليهدأ.

تابع، بنبرة أكثر وضوحا: رأيته يا كاف... رأيته.

هرعت لأجلب له الماء، وفيما كان يأخذ رشفة منه، سألته عما يقوله. أخذ لهاثه يخفّ تدريجيا:

- جاءني عبد الله في الحلم ويده مثقوبة.

حاولت أن أستفسر منه، اذا كان يقصد عبد الله جارنا. فأومأ برأسه، وأخذ يعيد على مسمعي ما قاله.

أخذت من يده كوب الماء، وأخذت منه رشفة بدوري.

فأنا أعلم تماما أن رؤى مروان لا تخطئ. وكان قد "رأى" قبل ذلك، "أن يد هند تفيض نورًا، وهي تضعها على جبيني المزدحم بالتجاعيد".

حالة مروان هذه لا تذهب عنه إلا بعد أن يتمدد لأربعين دقيقة، فيقوم بعد ذلك ليذهب الى الحمام، ثم يحتسي قنينة كبيرة من الماء دون توقف.

سألت مروان إذا بإمكاننا أن نفعل شيئًا لنمنع ذلك، كان رده يتكرر: "لا أحد يمنع الرؤيا... إلا".

أسأله أن يخبرني ماذا بعد "إلا" هذه، يتأملني، ويجهد برسم ابتسامة كئيبة: "ستعرف يومًا، تأكد أنك ستعيش لتعرف، وترى".

مروان كان على علاقة وثيقة بهاجر زوجة عبد الله، كثيرًا ما صادفتهما معا في أمكنة مختلفة. وقد سألته عن ذلك، بعد أن شاهدتهما، في المرة الأولى، خارجين من أحد الجوامع، فابتسم، وأخبرني أنهما التقيا شيخا. وعندما سألته عن السبب، قال لي: "هذه أسرار كونية".

.X

"يقول علماء الطبيعة: إن التقدم العلمي غيّر أساليب معيشة الإنسان على وجه الأرض، إلا أنه لم يغيّر شيئًا من الأخطار الطبيعية التي تهدد هذا الإنسان، وأكبر شاهد على ذلك ضخامة الأضرار التي نشاهدها على شاشات التلفزيون يوميًا".

أتذكر كلماتها عندما خرجنا من محاضرة عن الكوارث الطبيعية في العالم. قالت لي هند بحدّة، وكأنها كانت تعلم ماذا سيجري:

"إن العالم يقترب من مرحلة مهمة في تاريخه هي مرحلة الكوارث، وهذا بفعل انعدام التخطيط العمراني والاستنفاد غير المدروس للموارد الطبيعية. هذا الخطر سيصيب الدول المتقدمة والنامية معًا".

وأضافت بانفعال شديد: "لا بد أن نبدأ بالتحضير لما يسمى بطب الكوارث، فالطبيعة ضد الفقراء".

الزلزال الذي أخذ مني "روحي"، ضاربًا بشدة، مدمرًا كل شيء: الجسور.. تشققات حادة في الأرض، السكك الحديدية المنحرفة.. الحرائق في كل مكان.. ورائحة الأجساد الميتة.

الكوارث الطبيعية تتواصل، ومناخ الأرض يتغير كل يوم، والناس كثرت أحاديثها وتحليلاتها للكوارث ليس عمّا أصاب لبنان وحسب بل العالم أجمع. فعبد الله يخبرني مستندًا إلى دراسات الخبراء بأن معدل درجة حرارة الأرض ازداد 3 درجات أكثر من معدله الحالي، وتورد دراسات عن حالة القشرة الجليدية قرب غرين لاند، احتمال تكرار دورة من التقلبات الجوية المناخية المتغيرة بين مناخ الصحارى الحار ومناخ البرد والجليد.

وإذا كان عبد الله بدأ يتحدث عن غرين لاند، فمروان يلاحظ أن بقاع العالم تشهد تقلبات جوية في شتى مناطق الكرة الأرضية، كما ازدادت مستويات المياه في المحيطات على مدى 52 عامًا الأخيرة بحوالي 17 سنتمترا.

أما بالنسبة إلى زيادة حرارة الأرض، فيقول مروان: حسب التقديرات إن 95% منها عائدة أسبابها إلى نشاطات الإنسان لا النشاطات الطبيعية، فالنشاط الصناعي يضخ في جو الأرض غازي ثاني أوكسيد الكاربون والميثين اللذين يؤديان إلى سخونة الأرض.

يؤكد عبد الله كلام مروان مشيرًا إلى تحول مناطق سيبيريا الجليدية إلى مزارع كبرى للمحاصيل والحبوب، بعد أن كانت الثلوج تغطيها.

تدخلتُ بينهما لأتحدث عن توسع انتشار الملاريا الاستوائية والحمى الصفراء بسبب التغيرات في مناخ الأرض. ودمار ناطحات السحاب في أميركا نتيجة سرعة الأعاصير التي بلغت 360 كلم في الساعة. وطوكيو التي دمرها الزلزال بالكامل. كما ضربت الأعاصير سواحل أوروبا والبحر الأبيض.

يقاطعني عبد الله: بنغلادش غرقت بالفيضانات.

مروان يقول: إن الأرض عرفت الزلازل منذ تكوينها، وبفعلها تمت تكوينات أرضية، وتلاشت تضاريس طبيعية، ونشأت جزر حديثة، ومن تتابع ذلك قامت حضارات جديدة على أنقاض الحضارات القديمة بعد أن دمرتها الزلازل، وهذا ما حدث لمملكة سبأ في اليمن التي ضربها الزلزال عام 115 ق.م.

تحدثت عما ذكره العلماء المختصون بدراسة الزلازل بأن العالم يتعرض سنويًا إلى حوالي مليون هزّة أرضية يشعر الإنسان بألف هزة، أما المدمرة فلا تتعدى عشرات الهزات.

يشاركنا الحديث أبو خليل صاحب الدكان، الذي كان يسمع كلامنا بانتباه شديد، وهو ينفخ بنرجيلته قال: الله هو المسبب الحقيقي لكل الأسباب، هو المهيمن والممسك لهذه القوانين الطبيعية التي يخضع لها كل ما في السماء والأرض، وسبحانه تعالى قادر على مخالفتها حينما يشاء، وحيث ما يشاء مثل ما يحدث في معجزات

الأنبياء وكرامات الأولياء. الله قال: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير).

بعد أن أخذ سحبة عميقة من نرجيلتـــه، وســـعل قلـــيلاً، تـــابع: السبيل إلى تقليل مخـــاطر الـــزلازل مـــن أهمهـــا، وأهمهـــا علـــى الإطلاق، الحرص علـــى طاعـــة الله ســـبحانه وتعـــالى، والابتعـــاد عن نواهيه.

بصوت خافت قال عبد الله: هل تعلمون أن الأسماك تتنبأ بوقوع الزلازل؟

سأله أبو خليل: كيف؟ فأجابه عبد الله بعـــد أن رفـــع صـــوته: إذا خرجت الأسماك إلـــى الـــسطح، فـــان هـــذا يعنـــي أن زلـــزالاً كبيرًا أصبح وشيك الحدوث، وهذا مـــا ســـمعته مـــن صـــيّاد فـــي صور، إذ قال لي قبل وقوع الزلزال بيـــومين: إنـــه أصـــبح يـــرى أنواعًا من الأسماك لم يشاهدها مـــن قبـــل، طولهـــا نحـــو متـــرين، وتسبح على عمق يمكن رؤيته بالعين.

تابع قائلاً: الطيور أيضًا تتوقف عن التغريد.

ينتهي حديثنا عن الكوارث والزلازل، بأمر يصدره أبو خليل لجهاز كمبيوتره ليبث نشرة الأخبار:

"... أعلنت الحكومة عن وصول مساعدات من أفغانستان وأثيوبيا واتحاد دول الجزيرة العربية والولايات المغاربية المتحدة

ومصر وتركيا، وأفادت هيئة الكوارث العليا عن إرسالها خبراء ومعدات أخرى لإزالة الركام...".

مرت أشهر، وهم يرفعون الأنقاض.. كأنهم ينقلون مياه البحر بملعقة.

.xi

الناس يعتمدون التاريخ الجديد: قبل الزلزال وبعد الزلزال. التاريخ الميلادي المعتمد أمسى في كثير من الأحيان غير واضح، لا يشير بشكل دقيق إلى المقصود. وإذا كان التقويم السابق يشير إلى ميلاد المسيح، والهجري إلى هجرة محمد من مكة إلى المدينة، فإن التاريخ الحالي يشير إلى ما أرسله الله مباشرة إلى مدينة بيروت، وكأنها تحاكي عادًا وثمودًا، لكن الفارق أن أهل هاتين المدينتين نبّهوا قبلاً، أما هذه المدينة فقد دمرت دون سابق إنذار، ودون تحذيرات من نبي أو رسول.

أجمع قواي، واتجه للبحث عن عمل جديد بعد أن دمّر الزلزال المكتبة، بل الجامعة كلها. وعلى ما يبدو أن إدارتها الدولية لم تقرر ماذا ستفعل بعد.

لحظات تمر على وجودي في البيت، وها هو الصراخ يعلو، والعويل يمزق هدوء الحي، هرعت إلى الخارج، أترصد مكان الصوت، إنه من بيت عبد الله: خير إن شاء الله. لملمت نفسي، وصعدت مع الجيران إلى بيته.. كانت زوجته هاجر تتمرغ على الأرض وأولادها الأربعة يبكون. حولها اجتمع

أشخاص لم أرهم من قبل، يرتدون ثيابًا عسكرية، ويحملون البنادق والقنابل.

اقترب أبو خليل منهم وسألهم: ما القصة؟. وعلى وقع بكاء زوجة عبد الله، تمكنّا أن نفهم أن عبد الله استشهد على الحدود الجنوبية.

لكن عبد الله كان هنا البارحة صباحًا!. سألت. فأجابني أحد المسلحين بأنهم بعدما خططوا للعملية العسكرية، صدر الأمر بالذهاب إلى الحدود لشنّ عملية على حراس المستعمرة الإسرائيلية. وما ان أصبحوا على بعد مائتي متر حتى بدأوا بإطلاق النار عليهم. فانبطحوا أرضًا، وبعد أن هدأوا قام عبد الله ليتبول.. وهكذا كان.

قال لهم أبو خليل باستهزاء: اسرائيل اعترفت بها الدول العربية، والفلسطينيون غارقون بمعاركهم الداخلية.. والعالم كله يقف ضدّ أعمالكم.. ماذا تتوقعون؟ ها.. ماذا تتوقعون؟

ثم بدأ صراخه يعلو، وكاد يغطي على صوت هاجر: فلسطين الكاملة لن تعود.. انتهى الأمر، افهموا.

اقترب أحد المسلحين من أبي خليل، وبسمة هادئة تعلو فمه: لكن يا عم، هذا اغتصاب.

- اغتصاب.. اغتصاب...

ثم علت همهمة.. انطفأت فجأة.

– أين جثته الآن؟

لقد دفنّاه في المكان الذي استشهد فيه.. بناء على رغبته.

– وكيف عرف الإسرائيليون بمكانكم؟

– على ما يبدو أن لديهم عملاء بيننا.

تركنا هاجر تنتهد وتمسح دموعها، بعد أن قمنا بواجب التعزية، وبوعد الاهتمام بها وبالأولاد.

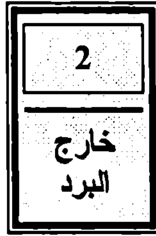
كانت خالتي نائمة، لم تدر بما حدث، وعندما استيقظت، أخبرتني أنها شاهدت حلمًا مزعجًا. وأسرعت للوضوء.

باستشهاد عبد الله، فقدت هاجر سندًا قويًّا في دعم رؤياها؛ فهي امرأة مسكونة بالتنبؤات والغوص فيما سيحدث مستقبلاً، فقد أصرّت على تسمية أولادها بأسماء وردت في الكتب المقدسة والموروث الديني، وكلها تشير إلى أسماء النبي المنتظر؛ فسمّت ابنها البكر محمد، والثاني مهدي، والثالث عيسى، أما ابنتها، التي جاءت بعد معركة طويلة مع زوجها – فهو لم يرد الإنجاب وهي تصر عليه – فأسمتها: مريم.

سمعت مرّة من أبي خليل البقّال أن اختيارها لزوجها لم يكن بسبب شخصه بقدر ما كان بسبب اسمه. وذلك كي تحبك نبوءتها، فيصبح أسماء أبنائها مقرونة بابن "عبد الله".

عندما كنت في سن السادسة عشرة من عمري، رأيتها تحرق أوراقًا لولبية الشكل، وما ان هممت بالاقتراب منها، سمعتها تتمتم بطلاسم لم أفهم منها شيئًا، وعندما شعرت بوجودي، حملقت بوجهي، وقد غطّت عينيها دوائر حمراء، وزعقت كامرأة جاءها المخاض: فسدت.. فسدت.. ابتعد عني أيها الملعون.

دبّ الذعر في أطرافي، ركضت، دون أن ألتفت ورائي.. أن أعرف اتجاهي. ومن ذاك الوقت، أشعر بأني أحمل لعنة في داخلي، لن تزول إلا بموتي.



"إن كنت أكتب، فلكي أتعلم أن أرى..
ولأدرك ما يحيط بي".

جاك دوبان (شاعر فرنسي)

هل سيتمكنون من إعادتها إلى الحياة!.

هذا الصباح أدركت أنني لم أبكِ على غياب هند بعد، كأنني لا أريد أن أعي هذا الغياب.. أو أفهمه. "فهند ذهبت الى مكان ما، وستعود".. هكذا كنت أقول لنفسي....

لكم تمنيت أن أدون شيئًا رائعًا، لم يكتب من قبل.

لكم تمنيت أن أنجز شيئًا ما لم يقم به غيري.

لكم تمنيت أن أبكي ساعة أشاء، دون أن يهدّئ أحد انفعالاتي.

الأيام تمضي، راسمة خلفها أخاديد النسيان، والتئام الجراح. سنة ونصف مرت، وهند متناثرة في هوائي وذاكرتي.

يصعب أحيانًا على المرء أن يسلّم بالحقائق، رغم إدراكه لها، فكثير من الحقائق يراها أحيانا ويلمسها، لكن الشك ينغرس عميقًا... كيف يختفي فجأة؟ كيف لا يعود موجودًا؟ وهل كان هنا فعلاً؟ هل تحسسنا يده، تأملنا حدقتيه، لاحظنا تغلغل الهواء في شعره؟ هل توسدنا كتفه، وبكينا أو ضحكنا أو حلمنا معًا؟.

الحياة بقدر وضوحها الصارخ غامضة، وكأنها تتوارى خلف شعرة دقيقة جدًا.. رفيعة جدًا، ولا نعود نفهم شيئًا.

الماء بارد والجو ينذر بسقوط المطر. لم يبق على بدء دوامي في الجامعة سوى ثلاثين دقيقة. أنجزت طقوس الصباح برغبة

جديدة، كأنني لم أمارسها من قبل، فأجد أن ملابسي بحاجة إلى كي، وأن لون القميص لا يناسب لون البنطال.. كذلك الجوارب والحذاء. أسناني برغم تنظيفها لاحظت أن اصفرارها أكثر وضوحًا بسبب التدخين.

ضيق ينتابني على غير عادة، كأنني ألج الحياة الآن. كأنني اشعر بأنني حيّ، موجود. طعم الماء مختلف، الشاي كذلك، حتى قطعة الحلوى التي اشتريتها منذ يومين، وأكلت منها أكثر من نصفها، اختلفت، ما هذا السر.

أسئلتي تتكاثر، كأن الحياة منحتني فرصة أخرى لألاحظ الاختلاف، التناقض. لأكتشف أنني كنت مخطئًا أو ربما ميتًا لأنني لم أسأل، أو لأرى بعيدًا عن المسلمات أو القبول والتواطؤ مع الروتين.

بيروت تعود إلى التنفس برغم الجراح الكثيرة، الحياة تتبلور يومًا تلو الآخر. الناس يندفعون إلى الشارع إلى اللقاءات إلى الكلام بعيدًا عن "النق" والهموم والشكوى. إلا أنا، فثمة بؤرة من الشرخ واسعة تتكئ على روحي، تجعلني أشعر بالندم وفعل الخطيئة كلما حاولت التوغل بنظرة مختلفة إلى الحياة.

الجامعة عادت من "موتها" منذ أيام، تبدو من بعيد كوردة وسط تداعيات الزوال.. ألوانها الجديدة، انتصابها بكبرياء وسط بقايا ركام الزلزال، أضفى عليها لمسة من صفات حاكم مستبد، حياته تعني

موت الآخرين، أو انبطاحهم له بشكل مذل بعيدًا عن كل ما تعنيه الإنسانية.

لا أعرف لما انهال على تفكيري هذا، عندما بدأت ألج مدخل الجامعة، عبر بطاقتي الممغنطة الجديدة، شاهدت الطاقم الأكاديمي بكامل جاهزيته، حتى البوّاب. ترتسم على الوجوه علامات الحركة والانبهار والقلق، وعلى مسافة لا تبعد سوى بضعة أمتار تتراكم أبنية وأجساد متلاشية تحللت مع التراب.

التحية نبرتها جديدة، كأنني ألقيها أو أسمعها للمرة الأولى، وها هم الطلاب يلجون إلى الجامعة بكامل أناقتهم وكأنهم مدعوون إلى عرس، أو إلى حفلة بروتوكولية.

"صباح الخير"، رددتها ربما أكثر من عشرين مرة. لكن وفي كل مرة، تخرج من أعماقي بنبرة مختلفة، كأنها تخص الشخص الذي ألقيها عليه فقط.

ها هو مساعدي في المكتبة يقبل نحوي بسرعة حاملاً ابتسامة عريضة تنبض من أنحاء جسده كافة.

للحظة عبرت بخفّةِ نسمةٍ في صيف، انهال كل هذا، وجمدت في مكاني ساعة رأيتها.

xii.

هند تقبل نحوي بمشية مرتبكة، تحت إبطها تدلت حقيبتها الكحلية اللون. وأنا أحاول بجهد ملحوظ تنقية عبارات مفتاح الكلام.. الكلام الذي يؤسس لعلاقة مستمرة دائمة لا تنتهي.

- أنكِ تزدادين سلامًا كلما رأيتكِ.

هكذا بادرتها اللقاء.. وتعثرت بالمتابعة. فاستهلت التحية بدورها: "عندما أراك تتملكني مشاعر الملائكة".

على ما أذكر كان هذا يوم أربعاء ما. عندما اتصلت بي تسألني عن أحد المراجع المتعلقة بجينات التوتر عند الرجل المتزوج وتأثير ذلك على قرار اتخاذه الطلاق. أذكر عندما سمعت سؤالها، قلت بتلقائية: "خير إن شاء الله". فضحكت وقالت: بحث طلبته مني إحدى مجلات الإنترنت.

لم تمضِ ساعة حتى كانت هنا أمامي.

أين هي؟ سألتني.

قلت: عمَّ تسألين؟ لم أفهم.

المراجع التي حدثتني عنها.. أنسيت؟.

لا، لم أنسَ، إلا أنني ما زلتُ أفكر في "سلام ملائكة".

طبعت ابتسامة، خففت من حدّة الجدية في سؤالها. واتجهنا معًا إلى الكومبيوتر للبحث عن المصادر التي طلبتها.

أجلس بجانبها، أشمّ عطرها الذي يحملني بعيدًا عن "مجتمع التقنية" المتناثر في القاعة؛ يجعل الشاشة والأزرار والمجسمات الإلكترونية أكثر دفئًا.. أكثر عطفًا. لا أعرف كيف تمكنت من ضبط المشاعر المتلاطمة في داخلي، خاصة عندما لمس إصبعها الصغير في يدها اليسرى إصبعي الصغير، نظرت إليه بحسد، وتمنيت لو أنني إصبعي.

ها هي تدنو ناحية الشاشة، رائحة شعرها تجتاح أنفاسي.. تشير إلى شيء ما على الشاشة، وأنا أشير إلى "أنا".. لأن يهدأ.

هل يعقل أنها لم تكتشف ما أنا فيه!.

سألتها ذلك فيما بعد، عندما نمنا معًا في أحد فنادق حيفا، أثناء الإجازة الأسبوعية. ولكم أبديت تعجبي لما كانت تشعر به ساعتئذٍ.

- "في الحقيقة لم أشعر بشيء..."

- "...... !!"

- "كان همي أن أنجز البحث..."

قالت لي هذا، وبدأت تبعد بعض الشعيرات المتناثرة فوق جبهتي، ثم أردفت قائلة بتودد:

- "ما تزعل"..

أذكر أنني نفيت حنقي، وأبديت عدم مبالاتي، غير أن غرور العاشق يشتعل في صدري.

لعلني بسبب ذلك عشقتها أكثر، احترمت صراحتها، وتساءلت: "كيف ظننتُ أنه بإمكان مشاعري أن تصل إلى إنسان يقوم ببحث عن "توتر الأزواج"!!.. أليس هذا غريبًا؟".

لكن، عادت وقالت لي في احدى زياراتنا للقاهرة:

- ذات يوم، تمنيت لو أنني اصبعي الصغير.

وضحكت.

xiii.

لم تمضِ ساعتان على وجودي في المكتبة حتّى أخبرني الروبوت عن وصول رسالة عاجلة من قبل إدارة الجامعة، وفحواها إن الجامعة وافقت على منحي قرضًا لشراء منزل جديد.

استغربت الأمر في البداية، ثم تذكرت أنني بعثت رسالة قبل الزلزال للحصول على القرض بسبب إقدامي على الزواج.

ابتسمت بهدوء المخذول، أرخيت ظهري على الكرسي.. وما هي إلا ثوان وتسقط من عيني دمعة.

للمرة الأولى أبكي "هندًا".. للمرة الأولى أحسست أنني فقدتها، أن مشوارنا معًا انتهى فعلاً.

هل الدمعة رسالة اعتذار إلى الذين نتجه لنسيانهم؟

سؤال بحجم الهوة التي اتسعت بين واقعي وذاكرتي، بتّ كمن يرى وهو نائم أو حالم.. لا فرق، أو لا معنى الآن للدخول في حيثيات المعاني والمصطلحات.. فالباب مشرّع على سماء من الكلام غير المحمّل لمرسل ما.

أحاول متابعة أول يوم لي بالعمل لاكتشاف ما طرأ من تغيرات، وبرصد الغائبين والحاضرين مع مساعدي في المكتبة. ولكم فوجئنا من نسبة الحضور الكبيرة، فنسبة الموظفين الغائبين كانت ضئيلة .

في هذه الأثناء، دخلت مسؤولة الأرشيف، تحمل في يدها كوبًا من القهوة، وفي الأخرى تحمل "شيئًا ما".

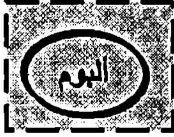
لا أعرف كيف انتابني إحساس أن هذا الـ"شيء ما" يتعلق بي. وها هي تقترب، تضعه على الطاولة أمامي.

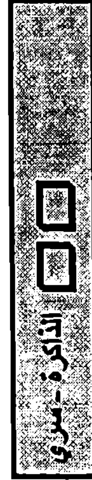
إنها شريحة جينات. نظرت إليها كمن يطرح سؤالاً. بادرتني: منذ قليل جاء مندوب مديرية الجينات، وقال إن صاحبة هذه الشريحة أوصت بعد موتها بأن تسلم إلى كاف عبد الله شبلي.

حملت الشريحة الممغنطة، تأملتها بيدين مرتعشتين، بذاكرة تعود للفيضان بالحنين والشوق.. وكأن شيئًا لم ينتهِ.

أسرعت كالريح الهوجاء إلى الكمبيوتر، وما إن حاولت إدخال الشريحة حتى توقفت فجأة. تناثرت قوتي كفنجان سقط على الأرض، بت عاجزًا عن دفع الشريحة في الجهاز.

سألني مروان عن سبب توقفي. فطلبت منه أن يدخلها عني. وبدأت بيانات الذاكرة العامة تظهر على الشاشة:





[عربي]
الاسم: هند إسكندر المدني
الجنس: أنثى
فئة الدم: o-
مواليد: 2002/9/11 (لمزيد من التفاصيل أنقر هنا)
الأمراض المحتملة: عادية (لمزيد من التفاصيل أنقر هنا)
الوضع العائلي: مطلقة (لمزيد من التفاصيل أنقر هنا)
عدد الأولاد: واحد (لمزيد من التفاصيل أنقر هنا)
التالي



ملاحظات: تعديل(2): أوصي بعد موتي بأن تسلم هذه الشريحة إلى زوجي.
(لمزيد من التفاصيل أنقر هنا)

قرأت البيانات، توقفت طويلا أمام كلمة "زوجي". لقد أثبتت زواجنا أثناء سفري، غير أنها لم تحذف لفظة"مطلقة" من البيانات.

تساؤل راودني، حقيقة لا علم لي بها.

لم أشعر بهذا الاكتراث من وقت طويل، أفكر بسيناريو ما لما حدث مع هند أثناء إثباتها للبيانات في الشريحة. غير أني لا أكتشف

سوى أوهام لعلها تلامس الواقع لكن لا أستطيع الجزم بذلك، سوى أنني أحاول "ملكًا أو أموت فأعذرا".

قال لي مروان، فيما كنا نتصفح ألبوم الصور: أنظر الى هذا النور في يديها.

لم يكن ثمة نور. سألته: ماذا يقصد؟.

صمت كعادته.

هل النور في يديها، أم في عينيه!

.xiv

(.. انقر هنا):

نقرت، واتسعت صفحة الكمبيوتر لتضم فصولاً من سيرة هند مرفقة مع صورها مذ كانت صغيرة، إضافة إلى صور أخرى.

"... ولدت في قرية كبيرة تدعى كفرالنبع شمال شرق بيروت. قريتي تمتد على سفوح جبل السرو، وفيها ترعرعت أيضًا. اسم قريتي لا يدل على معناها، فلا نبع فيها ولا شيء يبعث الماء. وعلى الرغم من ذلك يؤكد كبار القرية أن هناك نبعًا يقع قرب الساحة، في الحائط القديم المتداعي الذي يلامس جدار الكنيسة. ربما كلامهم صحيح، لأن تجويفًا أسفل الحائط ما زال ماثلاً للعيان، يأخذ شكلاً إسطوانيًا وينغرز إلى الخلف. كل ما أدركه أن محاولات الحفر التي قام بها أهل القرية لبعث مياه النبع باءت كلها بالفشل.

سمعت قصصًا حول النبع مختلفة، يعود بعضها إلى مئات السنين، ويخالط بعضها الكثير من المبالغة والخرافات. لعل أبرزها ما يقال إن فتاة عشقت أحد الفتيان من قرية مجاورة، وكانا يلتقيان عند النبع في ساعات الفجر الأولى. في يوم مرّ شقيقها من قرب المكان ليشرب ويجهّز نفسه لرحلة صيد طويلة، شاهد أخته في

أحضان ذاك الفتى. لم تمر سوى لحظات معدودات حتى أصيبت بطلقتين إحداها في الرأس والأخرى اخترقت ظهرها لتخرج من صدرها. خرّت مضرجة بدمها على حضن حبيبها الذي فقد صوته أمام المشهد.. الدموع تراكمت خلف عينيه ولم يتمكن من ذرفها. وقبل أن تغيب شمس ذاك النهار تحول إلى طائر "ابن الماء"، يقف على طرف النبع ويئن بصوت خافت.. بعد ثلاثة أيام، وجد أهل القرية الطائر ممددًا على فوهة النبع، وقد جفّ تمامًا.

لم أغادر قريتي إلى بيروت إلا بعد أن أنهيتِ مرحلة الثانوية.

قبل أن أتخرج من الجامعة تعرفت الى زوجي، قبل أن يقرر الهجرة الى باكستان للعمل هناك في مجال الذرة.

لم أرد الذهاب معه. وبعد مضي سبعة أشهر ولد ابني بعيدا عن أبيه. قررنا الطلاق، فلم يعد بامكاننا الاستمرار هكذا. وافق على أن أربي ابني لخمس سنوات، وأراه بعد ذلك شهرا في السنة، بعد أن يأخذه معه الى حيث يعمل.

حبيبي "كاف" عوّضني عن ابتعاد ابني قليلاً، ربما لأنني كنت أرى فيه طفلا كبيرًا. قليل الكلام، أرى في عينيه بريقًا يفيض بالمودة. أذكر المرة الأولى التي لمس اصبعه اصبعي الصغير. وقد تمنيت وقتذاك أن أكون "كلّي" اصبعي الصغير.

* مشهد:

لمَ لا أقصقص هذا الحَر؟
أنسج لحبيبي كنزةً من بردي
في بيتي الطيب أبحث عن القليل.
وعند الظهيرة وحيدة إلا مني
هواء.. مطر وصقيع
أحتاج الى أصابعه، وجواب...".

(هند: ذاكرة 66: سري- ملف 0108)

ناولني مروان منديلا لأمسح "الماء" في عيني. سألني:
ألم تشاهد النور في يديها بعد؟.

.XV

القرض ساعدني لشراء بيت جديد، مؤلف من غرفة للنوم وأخرى للجلوس ومطبخ وحمام. يقع في الطابق العشرين ويشرف على البحر.

شجعني على السكن في البيت مواصفاته الأمنية التي تشمل دعائم مضادة للزلازل، ولا سيما بعد توقع أحد علماء الزلازل البارزين احتمال تعرض قبرص غير البعيدة عن شواطئ لبنان لزلزال مدمر يؤدي إلى غرق أكثر من نصفها تحت البحر خلال العشر سنوات القادمة، وسيكون مماثلا للزلزال الذي ضرب بيروت وتسبب في مقتل آلاف الأشخاص. كما ستستمر على الأرجح خلال هذه الفترة التحركات الزلزالية للقشرة الأرضية التي تسببت في حدوث زلازل في حزام الأبيض المتوسط. لذا، يجب أن نستعد.

ها أنا أقوم بما يلزم، تزامنا مع تفكير الحكومة اللبنانية والقبرصية بنقل مراكزهما المهمة بعيدًا عن مراكز الزلازل.

الحياة باتت مليئة بالحذر والترقب. الناس يغرقون أكثر فأكثر في روحية التقنيات، والابتعاد عن روح السماء والمفاهيم التي تدعو إلى العودة إلى إنسانية الإنسان، ذاك الإنسان الذي كان بمقدوره أن يحب

ويكره وينفعل، الإنسان المؤمن والملحد، الإنسان الذي يهتم ويبالي بالحوار والتواصل مع الآخرين.

لكن لماذا أنا أبالي بكل هذا؟

أطلق العنان مجددًا لخيـالي كلمـا جلسـت لأدون ملاحظـاتي عما أكتشفه مـن علـم الـشرائح أمـام البحـر الممتـد أمـامي. اهتمـامي هـذا، نبـع مباشـرة بعـد أن أكـد لـي بروفيـسور سوسيولوجيا علم الشرائح في الجامعـة أن هنـاك محاولـة لأحـد العلماء المصريين، لإسقاط ذاكرة "شـريحية" مـستمدة مـن البيئـة الفرعونية على إحدى المومياءات، ومن الممكـن أن تبـث الحيـاة فيها وتكشف تفاصيل عن حياتها آنذاك.

سافرت إلى مصر على الفور، والتقيت بالعالم محمد علي عبد الكريم، سألته عن احتمال نجاح ذلك. ابتسم وقال: العلم عند الله. استغربت ردّه. اعتقدت بداية أنه يسخر مني. لكن بعد أن لمح هذه الخيبة في عيني، تابع سائلاً: أتؤمن بالله؟.

سؤاله أربكني وحيّرني في الوقت نفسه. وبعد برهة قصيرة أجبته: ما علاقة إيماني بالأمر؟.

قام من وراء مكتبه واقترب من الآية القرآنية المعلقة خلفه. ثم قال: الطائفة العلمانية تنتشر بشكل كثيف في العالم، وتحاول دائمًا من خلال مفكريها وعلمائها إثبات إمكانية التحكم بالأشياء بمعزل عن

تدخل الله فيها، وبذلك يحاولون أن يثبتوا بشكل أو بآخر أن العلوم التي يتم اكتشافها تباعًا تؤكد أن الله غير موجود، وأن كل شيء مرهون بالعقل البشري.

صمتَ وكأنه ينتظر ردًا ما منّي، إلاّ أنني لازمت الإنصات، لأنه فاجأني بكلامه. ما يهمني في هذه اللحظة أن اطمئن على إمكانية معرفة ما جرى مع هند أثناءِ غيابي عنها. ثم قلت في سري "لقد خذلني".

- لا تعتقد أنني أحاول أن أحبطك. أنا مدرك تكبدك العناء للمجيء هنا لتعرف الجواب.

كلامه زاد من حيرتي، قلت بعفوية طفل فاجأته أمه وهو يعبث على الحائط:

- الله موجود.

كأنه لم يطمئن لتأكيدي، ابتسم بمكر:

- لم تكن تتصور أن عالمًا يحدثك عن الله والإيمان!.

لازمت الصمت كتمثال أبي الهول المصغّر في ركن مكتبه. "ما هذه المصيبة التي أوقعت نفسي بها! لو بقيت في لبنان أتابع ما يطرأ من بعيد، دون هذا الإحراج الذي أوقعت نفسي فيه". دار هذا في خلدي، قلت بصوت شبه مسموع:

- في الحقيقة... لا.

عاود الابتسام، كأنه يحضرها فجأة لتهيل على الجلسة مزيدًا من الغموض والغرابة. مشى قليلاً وقف خلف الكرسي التي كنت أجلس عليها.

للحظات انتابني خوف شديد، كنت أنتظر شيئًا ما يسقط عليّ، أو أن تلتف يداه حول عنقي وتخنقانني. "لكنه مؤمن ولا يفعلها". بهذه الفكرة حاولت أن أخفف من حدة توتري وهلعي. قدّم لي كوبًا باردًا:

- تفضّل، انه مفيد للتوتر الذي ينتابك.

نظرت إليه ثم تأملت الكوب، هل أشرب منه؟ لم أفكر كثيرًا، وضعته على شفتي، جرعته دفعة واحدة. كان يراقبني، والابتسامة لا تفارق شفتيه.

سألني بارتباك: هل أنت مسلم أو مسيحي؟. نظرت إليه وأجبته بدون تفكير: مسلم. وأردفت: لكن أحب المسيح وبوذا، وقرأت التوراة والانجيل والقرآن.

بعد سكون رنا على المكان، شعرت أني بحاجة لأقول له: لكن انتمائي الحقيقي هو للانسان. قام عن كرسيه، ودنا مني: وأنا أؤمن بالإنسان.. والإسلام هو دين الإنسان والإنسانية.

وجدت نفسي أتحداه بقولي: دين الانسان انسانيته. لكنه تابع كلامه: والإنسانية.. مجموعة مبادئ وقيم ومثل وعقائد.. ودون لوائح

تعلم الانسان تلك الأمور، لا تنمو إنسانيته.. والأديان هي التي تعلّم المرء تلك اللوائح.

بانفعال ملحوظ قلت له: الاخلاق لا الأديان هي التي تعلم الانسان تلك الأمور. الدين حمّال أوجه.

سألني باستهزاء: ومن أين نتعلّم الأخلاق؟

- الاخلاق كانت سابقة للدين يا دكتور.. فالدين استغل الاخلاق ووظفها في مادته ونسبها إليه.

كأنه تفاجأ بكلامي، فجلس على المقعد الذي بجانبي، وهو يقول: لا أدري.. لا أؤمن بهذه الفكرة، رغم أنني أؤمن أن الخير فطرة داخل الإنسان.

طرحت أمامه فرضية دعوته فيها الى تخيل أنه ثبت بشكل جازم أنه ليس هناك من أنبياء، وأن كل ذلك بدعة، ماذا سيحدث بالانسانية؟.

- ستدمّر الإنسانية

قلت له بعد أن تملكني شعور بأنه بدأ يميل للاقتناع بفكرتي: طبعا ستدمر الانسانية إذا كنّا نؤمن بدين هذا النبي أو ذاك، أما إذا كنا نؤمن بالأخلاق فتستمر. وعززت قولي باستشهاد أن المجرمين يؤمنون بدين ما، لكنهم ليسوا أخلاقيين وهذا هو الفرق.

عاد وذهب الى خلف مكتبه، ثم سألني كأنه تذكر أمرا ما: ألم يقل الرسول الكريم "بعثت لاتمم مكارم الأخلاق"، وقوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم).

نظرت اليه بمكر: هذا صحيح، ففي الاستشاهدين، إذا لاحظت ذلك، اعتراف ضمني بأولوية الاخلاق. وهذا ما أقوله، أي ان الاخلاق سابقة للدين.

كأنه يرفض الاقتناع، ويسعى لدفع فكرتي عنه بعيدًا: لو كان الأمر كذلك، فلماذا أشدهم إجرامًا من لا دين لهم، مثل المغول والنازية والفاشية... فهؤلاء لم يكن لهم دين، وقد عاثوا في الأرض فسادا. يظل الجزاء أمرًا حيويًا من أجل الإيمان بالأخلاق وتنفيذها، وهذا ما يوفره الدين.

أجبته بثقة عالية: يا سيدي هؤلاء ليسوا أخلاقيين، فرغم أن معظم أوروبا لا دينية لكن لها سلّم أخلاقيات تسير عليه وتتعامل مع الاخرين من خلاله. وأردفت: لا أعتقد أن هناك جزاء أقسى من تعذيب الضمير.. الضمير المتحلّي بالاخلاق والمربّى عليه.

لا أعرف لماذا أحسست بأنني ملزم أن أطمئنه قليلا، فتابعت: الانسان خلق عابدًا بالفطرة.

تنفس بعمق وأجابني بارتياح: نعم، فقد عبد الحجر والنار والقمر، ولم يلزم على ذلك.

تأملته وقلت مازحًا: لكن يقال ان الانسان خلق الله لأنه يخاف.

القاهرة تعجّ بالضوضاء صباحًا كالعادة. العالم دعاني لصحبته بزيارة منطقة تونة الجبل.

في الطريق أخبرني أن هذه المنطقة تقع في محافظة المنيا، تبعد نحو 300 كلم جنوبي القاهرة. وقد أقام بها أخناتون فرعون التوحيد في مصر القديمة قبل أكثر من 3350 عاما، مشيدًا فيها عاصمته التي اشتهرت باسم: "أخيتاتون"، تل العمارنة حاليًا، وجعلها مقرًا للدعوة للإله الجديد "آتون".

عند وصولنا الى المكان، قال: المنطقة كانت تضم ثلاث لوحات حدود احداها لا تزال في حالة جيدة، تمثل منظرًا منقوشًا يشير إلى أخناتون وزوجته نفرتيتي، وبناتها يتعبدون للإله آتون: "قرص الشمس". إضافة الى النص المصاحب والمتكرر في كل اللوحات تقريبًا. أسفل هذه اللوحات توجد أجزاء من تماثيل لكل من أخناتون ونفرتيتي. وسمعت شخصًا كان يسير إلى جانبنا يقول: بعض زخارف مقابر تونة الجبل ترجع للعصرين اليوناني والروماني، فالأثريون يعتبرون عمارة المنطقة وفنونها تمثل مرحلة تزاوج بين الفن المصري القديم والفن اليوناني.

أبرز ما شاهدته في المكان جبّانة كبيرة للطيور والقردة، فأخبرني العالم: أن الطيور كانت مقدّسة والقردة رمز الإله تحوت.

وجدوا الكثير من المومياوات للطائر أبو منجل والقردة محنطة، موضوعة داخل توابيت حجرية صغيرة وأوان فخارية، ووجدت هذه المومياوات في ممرات طويلة متشعبة حفرت في باطن الأرض.

عدنا إلى القاهرة، أو "مصر"، كما يسميها أهلها، عصرًا على أن ألتقي العالم صباح اليوم التالي، لارتباطه بمحاضرة سيلقيها في مدينة الإسكندرية مساء.

النيل الخالد بدأ يفقد كنوزه رويدًا رويدًا، بعد الصراع الذي نشب بين مصر والسودان مؤخرًا، وقرر السودان على إثره بناء سدود في أراضيه ما أدى إلى نقص حاد في منسوب مياه النيل. كما ترك سعي السودانيين، لاثبات أن الفراعنة سودانيون، أثره البالغ في اتساع الشرخ بين الشعبين، خاصة بعد اكتشاف آثار وكتابات تعزز ذلك.

كأن ما حدث لي مع العالم لم يكن كافيًا، فبعد أن ودّعته، اتجهت لأقرب مطعم، وهناك رأيتها من جديد.

xvi.

المكان يلملم روائحنا، يحفظ خيالاتنـــا فـــي ثنايـــا زوايـــاه. لا بد من وجوده ليكتمل معنى وجودنا، فمـــن فـــردوس مفقـــود إلـــى أرض قلبناها رأسًا على عقب لا لشيء إنمـــا لنبحـــث عـــن أمـــاكن أخرى تسرد حكايـــا مـــن ســـبقنا. محاولـــة عـــيش الإنـــسان فـــي الفضاء الخارجي رغم التقنيـــات الهائلـــة المريحـــة لـــذلك، فـــشلت جميعها، كأن الأرض صرّتنا، كأن الأرض شكلنا الأصلي.

هنا قالت هند: ما أجملكَ وأنت تلمس روحي بكلامك العابق بالأسئلة.

هنا في هذا المطعم الذي يعتلي عرش النيـــل أكـــدنا أننـــا لـــن نفترق أبدًا.. أحسسنا أن الفرعونة الـــصغيرة "تـــوت عـــنخ آمـــون" ابنة "امنحتب الثالث" التي قتلت بسبب الحـــب والغيـــرة منـــذ ثلاثـــة آلاف سنة، ترعانا بعينيها النائمتين، بعد أن زرناهـــا فـــي صـــمتها الأبدي.

ضممت يديها على هذه الطاولة، وكان النبيذ الأبيض يبارك هذا اللقاء، بسلاسته ومذاقه الطيب.

تناولت الطعام، وخرجت بسرعة كالهارب من شيء ما. حاولت ألا ألتفت إلى الوراء، خفت أن أتحول إلى عمود ملح. توجهت مباشرة إلى الفندق الذي نزلنا فيه معًا. الحكاية تعود، التفاصيل التي خلت أني نسيتها تمامًا، تعود كاملة، بجزيئاتها الصغيرة، وحركاتها وسلوكها.

هل ما زلت بحاجة إلى الشريحة؟ إلى كشف تفاصيل الذاكرة؟ فهند تتوهج كشمس النهار الحنون.

فشلت جميع محاولاتي بقيلولة، ارتديت ملابسي ثانية، وتوجهت إلى قاعة الاستقبال. أشخاص من جنسيات مختلفة، لغات تتداخل، وأنا جالس في زاوية القاعة أحتسي الشاي وأتأمل الناس.

ثمة سؤال ما فتئ يراودني بشدة، كأنني استيقظت فجأة من حلم مبهم، أحاول أن أعيد استعراض بعض تفاصيله الصغيرة لعلّي أفهم ما شاهدته.

"لمَ أفعل هذا؟".

لمَ لا أقتنع بأن الموت موجود فعلاً؟ أنه يضع نهاية لكل شيء دون تمييز.

هل الحبّ هو ما يقودني إلى كل هذا؟

أو أن التطور العلمي وإمكانياته الهائلة يخطّ الأمل في الأرواح المتعبة؟

"الموت حق". ومحاولة إبعاده حق أيضًا. لكن هند ماتت.. ذهبت.. تلاشت..

"آهٍ.. ما أتعسني الآن!!".

.xvii

القاهرة صباحًا مختلفة بعض الشيء عن مسائها، ولا سيما فجرًا. ثمة سحر يلف المدينة، سحر قديم يتمكن من مشاعرك، يجعلك ترتاح إليها، تأتمنها على نفسك دون اندفاع.

الناس قليلون في الشارع، الهمّ والفقر باديان على الوجوه، غير أن بريق الحياة يشع في جنباتهم، راضون قانعون، يحمدون الله على كل شيء.

خرجت من الفندق الخامسة والنصف صباحًا، لم أتمكن من النوم أبدًا، كانت هند معي، واقفة في كل زوايا الغرفة، تبتسم، تنظر إلي، لا تقول شيئًا.. المشاهد تتكرر، ضحكتها، انفعالاتها، حرارة جسدها المنتفض بالرقة.

دخّنت علبتي سجائر، صدري يخرّ، كنت بحاجة ماسة لأتنفس، لأمشي، بحاجة كي أعود إلى الحياة.

طبق الفول بقي خالدًا في مصر أمام التطور في جميع المرافق، والتغيرات الهائلة في السلوك والعادات. يصعب على المصري أن يبدأ نهاره دون هذا الطبق أو شمّ رائحته وهو يتجول صباحًا. رأيتني أتناول الفول مع كأس الشاي، وفي المقعد المقابل جلس رجل أنيق

يلتهم طبقه بخفة وسرعة، عجبت من طريقة لفّه للّقمة ووضعها في فمه وعلكها وهضمها وابتلاعها، حتى أسلوبه في احتساء الشاي مختلف.

- لا شك أن لديك تقنية ما في أكل الفول؟ سألته.

نظر خلفه وعلى جوانبه، مستغربًا:

o تتحدث معي؟.

- نعم، صباح الخير .

o صباح النور، نعم، فأنا آكل الفول دائمًا.

- لكن طريقتك في الأكل تنم عن مهارة.

o شكرًا، هذه طريقتي في تناول طعامي.

- أرى أنك تذهب إلى عملك باكرًا، أليس كذلك؟

o نعم، فأنا أعمل في شركة خاصة، ورئيسها يعتبر الدوام الباكر مفيدًا للإنتاج، إذ الموظف يمكنه أن يعطي أكثر في ساعات الصباح الأولى.

- وأنت ما رأيك؟

o هذا رأيي، فأنا رئيسها.

لا أعرف كيف بلعت ريقي، كيف سعلت فجأة.. كيف اندلق قليل من الشاي على الطاولة.

- أعتذر. قلت له.

ابتسم بهدوء: "ما تخودش بالك". أنت لبناني؟

- نعم.
- سياحة؟.
- لا، أتيت لمقابلة أحد الأشخاص.
- يبدو عليك أنك لم تنم جيدًا؟.
- في الحقيقة، لم أنم أبدًا.
- آه. لماذا؟ هل "مصر" أزعجتك؟.
- لا، إنما رأسي مشغول.
- فهمت، على كل، يمكنني أن أقول لك حقيقة اكتشفتها مؤخرًا، وهي: رغم كل شيء، الحياة تسير.

انتظرت الحقيقة التي سيقولها لي، إلاّ انه صمت وتابع مسح ما تبقى في طبقه. عندما أعدت ما قاله اكتشفت أن الحقيقة التي قالها: "رغم كل شيء الحياة تسير". ضحكت، ضحكت لهذه النصيحة الساذجة. ونظرت إليه:

- شكرًا..
- على ما يبدو أن "الحقيقة" أسعدتك؟.
- نعم، وأظن أنني تحسنت الآن.

غادرني بعد أن أصرّ على دعوتي للشاي مساء اليوم في شركته الكائنة في "القرية الذكية" في الإسكندرية.

.xviii

لا أميّز الوجوه، إلاّ أنني أشعر بأنني أعرف أصحابها، أفهم هذا التعب في العيون، هذه الأجساد المندفعة في الطرقات، أشعر بالبهجة حقّا، هذا الرجل تمكن من قلب مزاجي، رغم أن نصيحته التي قذفني بها سخيفة وعادية وتدل على ضحالة. ما يهمّ الآن أنني أشعر بتحسن ومزاج هادئ، لكن ينقصني أخذ قيلولة قصيرة، فالنعاس تمكن مني أخيرًا.

أنحدر متجهًا مباشرة إلى الفندق، الساعة الآن السابعة، يمكنني أن أنام ساعتين قبل أن أذهب لملاقاة العالم. حددت المنبّه، ونمت، نمت كأنني لم أنم منذ شهر. بصعوبة بالغة استيقظت بعد ساعتين، أخذت وأنا بين النائم واليقظ حمامًا ساخنًا، ارتديت ثيابي، أصبحت جاهزًا للقاء العالم.

الآمال التي أعقدها على هذا اللقاء، يصعب عليّ وصفها، ولا سيما أنها تتعلق بإمكانية إعادة هند إلى الحياة. أعطف السيارة ناحية اليمين ومن بعيد تطلّ جامعة العلوم الجينية والاستنساخ. هذه الأماكن كأنني أراها للمرة الأولى، على الرغم من مجيئي لها أمس. هل هذه الحديقة كانت هنا فعلاً؟

هل هذا المبنى كان زجاجيا فعلاً؟ أتلفت يمينًا ويسارًا إلى الوراء وطبعًا إلى الأمام. أين أنا؟.

بعد أن سهّل رجل الأمن دخولي الى المكان، كانت وصيته التي كررها على مساعي: لا هاتف، لا ذبذبات، ولا تتزعج من التفتيش.

أول ما واجهني أمام مدخل الجامعة غرفة صغيرة، تجلس بها موظفة أمام شاشة الكومبيوتر، مهمتها تدوين المعلومات عن الزائر وأخذ بصمته. الغرفة الصغيرة تحتوي على كرسي واحد، وتدلت من جدرانها أسلاك دقيقة تومض بألوان مختلفة. الموظفة أومأت لي أن أطرق نافذة صغيرة مساحتها نحو عشرين سنتمترا بعشرين سنتمترا، مددت الى موظفة تجلس خلف النافذة اذن الدخول، أعطتني بدورها بطاقة ممغنطة لأعلقها على قميصي.

اجتزت بوابة الدخول، فحص الموظف البطاقة، اتجهت يسارًا الى باحة واسعة، ومن بعيد كنت أشاهد عددا من الطالبات والطلاب.

وقفت أمام روبوت الاستعلامات، بدأ بتفتيش ثيابي، فحص جسدي بآلة دائرية، سألني: من تريد؟... قلت: العالم محمد.. محمود.. أحمد.. يا للمصيبة نسيت الاسم، كعادتي دائمًا!.

الروبوت ينتظر الاسم بعد أن فحص البطاقة الممغنطة، لفتح الباب، وأنا أتلو على مسامعه الإلكترونية أسماء مشتقات ح م د. بدأ العرق ينساب من أطرافي، الارتباك يشلّ تفكيري تمامًا. بعد لحظات

شعرت أنني خارج الزمن، شرعت أتلمس أزرار ساعتي بعصبية. لقد حفظت اسمه فيها. وأخيرًا: "محمد علي عبد الكريم".

صرخت بوجه الروبوت الذي لا يبالي بكل ما يجري من حوله.. الهادئ جدًا: محمد علي عبد الكريم، نعم.. محمد علي عبد الكريم. فتح الباب مباشرة، أدخل كأنني أخطو أولى خطواتي نحو الأوكسجين الذي شعرت بأنه اختفى من المكان.

العالم الجالس خلف مكتبه الزجاجي الشفاف، ينظر إلي ويبتسم، هذه الابتسامة التي كنت أنتظرها، لأبرر له سبب تأخري عن الموعد ست دقائق. بادرني: أيعقل أن تنسى اسمي بهذه السرعة؟. اعتذرت منه، وأخبرته عن الليلة الرهيبة التي عشتها أمس.

لكنه فاجأني عندما سألني: لكنك نمت في الصباح، أليس كذلك؟. وكالأبله كانت عيناي ترنوان نحوه: كيف عرفت؟

o من قراءتي لوجهك.

- هل كُتب على وجهي ذلك؟

o بالطبع، إلا أن الإنسان العادي لا يمكنه معرفة ذلك بسهولة.

سألته عن قصده بـــ "العادي"؟ فمضى قائلاً: الذي لم يتعلم تحليل الوجوه. سألني بعد أن اقترب من آلة القهوة والعصير: ماذا تشرب؟ قهوة .

o ذوقك في الشرب مازال رومانسيًا!

ثم سألني وهو يقدم لي القهوة: هل معك عيّنة من جسدها أو دمها؟

كلامه فاجأني مرة أخرى، لم أكن أنتظر سؤالاً مثل هذا.

- نعم، والشريحة معي أيضًا.

○ جيد.

ناولته الشريحة أدخلها في جهاز الكومبيوتر، بدأ ينقر بالأزرار، وأنا لا أفهم شيئًا. تظهر على وجهه علامة تساؤل، يتوقف عن النقر، يتأمل أرقامًا ما في خريطة ارتسمت أمامه، ولائحة من الكلمات والرموز تتوالى بشكل سريع.

مرت أربعون دقيقة والعالم يقرأ الشريحة ويقوم باجراءات في مختبره. حملق بي باعجاب: من هذه السيدة العظيمة؟

لم أفهم سؤاله، حاولت أن أعيده مرة أخرى: "من هذه السيدة العظيمة؟": هند...

○ أعرف، أقصد أن الأبحاث التي كانت تقوم بها في علم الجينات تنم عن عقلية علمية متطورة.

ازددت استغرابًا، وسألته عمَّ كانت تفعله؟. فاقترب مني وقال بتودد: كانت تحبكَ..

صمت، كأنه ينتظر ردّة فعلي على ما يقوله. لازمت الصمت، قال كأنه يتابع حديثًا: هند كانت تعدّ أبحاثًا لإطالة حياة الإنسان، وقد

شارفت على النهاية. لكن شيئًا ما زال ناقصًا، يلزمني وقت لأعرف ما هو. طبعًا إذا سمحت لي بإبقاء الشريحة، أو أعطيتني كلمة السر لنسخها على شريحة أخرى.

- لكن أنا أتيت لأعرف ما مدى إمكانية إعادتها إلى الحياة!.

- صحيح أنني أقوم بتجارب على مومياءات الفراعنة، إلا أنني ما زلت في البداية وهذا يلزم وقتًا وصبرًا.

شعرت بأني خدعتُ وأن رحلتي كلها كانت هباء بهباء. أخذت الشريحة منه، وعيناه تلحقانها حتى وضعتها في جيب سترتي الداخلي. لم أنتبه ساعتئذٍ إلى أهمية ما قاله بخصوص اكتشاف هند، وإلى خطورة ما تحمله الشريحة من بيانات.

وصلت الفندق في حالة إحباط واكتئاب شديدين، موعدي مع الرجل الذي قابلته في المطعم الساعة الثامنة مساء في الإسكندرية. هل اتصل به واعتذر عن المجيء؟. لا أستطيع اتخاذ قرار، تمددت على السرير وغرقت في نوم عميق.

.xix

تمتمت بأغنية قديمة، كانت أمي ترددها عندما كنت صغيرًا: "شط إسكندرية يا شط الغرام..". أتذكر أنني سألتها مرة: "من هي إسكندرية هذه؟" فأجابتني بأنها مدينة ساحلية في مصر. "ولماذا اسمها إسكندرية؟" قالت: "أسمع أنها سميت بذلك نسبة لقائد كبير يدعى الاسكندر المقدوني". غرقتُ حينئذٍ في خاطرة تملكت كياني، وهي أن يكون هناك مدينة تدعى "كافّية" نسبة إلى اسمي.

هلّت أمي على خاطري بشكل متتال وأنا اتجه إلى المكان الذي حدده الرجل الذي قابلته في المطعم. أمي التي تحمل شهادة في العلوم السياسية، كانت تعمل في وزارة الخارجية، وهناك التقت بأبي، الذي جاء إلى الوزارة ليسأل عن أولاد أخيه المقيمين في البرازيل منذ فترة طويلة، وحسب ما أخبرتني أمي، أنها أُعجبت بهذا الموقف الإنساني، فحاولت أن تساعده بالسبل المتاحة لديها. جهودها كلها ذهبت أدراج الريح، إلا أن العلاقة توطدت بينهما، وتكللت بالزواج.

أوضح لي أبي عندما سألته عن أولاد عمي، أن هذه القصة اخترعها ليتعرف إلى أمي، إذ كانت تثير اعجابه منذ أن رآها أول مرة في مصعد البناية التي يسكن فيها، سألها إلى أي طابق؟ أجابته:

الرابع. مستوضحًا: عند عائلة بطرس؟. أومأت له "نعم". ثم دارت رأسها يسارًا وشرعت تتأمل سقف المصعد. تابع أبي رواية اللقاء الأول: بدأت أبحث عن حجّة لأنزل إلى بيت بطرس. تذكرت أن الناطور شكى لي سكان البناية الذين لم يدفعوا له ايجار الشهر. فوجدتها فرصة ونزلت إلى عائلة بطرس عسى أن نجد حلاً لذلك. وهناك بدأ كل شيء.

لعل أمي هنا وعلى هذا الشاطئ الممتد على البحر الأبيض المتوسط، كانت تتمتم مع أبي في أول سنة زواج لهما، "شط إسكندرية يا شط الغرام". وهنا، أيضا، ولد اسمي: كاف، حيث ذكرت لي أمي أن اسمي جاء لها في الحلم وهي في مصر، فبعد الاسبوع الاول من زواجهما، استيقظت الساعة الرابعة فجرا، وهي تهز أبي، وتهدس بلفظ غير مفهوم: كاف... كاف. أبي استيقظ مذعورا، سألها: ما بك؟ فعادت لتمتماتها: كاف... كاف. ناولها أبي كأس ماء، ثم مسح وجهها بمنديل مبلل بالماء. قالت له: اسم ابننا سيكون: "كاف". ابتسم أبي، ثم بدأ يضحك: "كاف"!. قالها مستغربا. فتابعت أمي:

"جاءتني في المنام فتاة صغيرة، لها شعر قصير، عيناها بلون اللوز، كتبت لي على شاشة صغيرة كانت أمامها: ك..ا..ف. هززت برأسي مستفسرة، فمسحت النقاط من بين الحروف الثلاثة، وتأملتني، قرأت: "كاف". عيناي ظلتا

ترسمان علامة استفهام. رفعت سلّة قش من نهـــر انتـــشرت علــــى ضفافه أشجار كثيرة.. واختفـــت فجـــأة. لـــم أع بنفـــسي الا وأنـــا أردد: كاف.. كاف.. كاف.

سألها والدي: ماذا يعني كاف؟ وكيف عرفت هذه الفتاة أننا سننجب طفلاً ذكرًا لا أنثى؟ التزمت أمي الصمت، فهي لا تعرف الجواب.

وصلت إلى المكان الذي حدده لي حلمي كامل الرجل الذي التقيته في مطعم الفول. المكان رغم صغر مساحته إلا أنه يشمخ بأسلوب معماري حديث، الساحة وسط "القرية" تضم مجسّمًا زجاجيًّا ضخمًا عبارة عن مربعات ودوائر هندسية. درت حوله متأملاً أبعاده من زواياه كافة. كان شيء ما يشدني إليه، يسحبني نحوه دون إرادة مني. أين شاهدت هذا المجسّم من قبل؟ سألت نفسي. وبعد لحظات تذكرت ساحة صيدا، صيدا الواقعة في جنوب لبنان، "المدينة الإلكترونية"، كما وصفها أبي عندما زارها مفتتحًا إحدى شركات صناعة البرامج المعلوماتية، وكان لم يمض شهران على تسلمه وزارة المعلوماتية، رافقته آنذاك في أول زيارة لها طابع رسمي، وكم شعرت بالفخر والناس تراقب باهتمام كلام الوزير "أبي".

دخلت إلى مكتب حلمي كامـــل، لـــم أجـــد إلا رســـالة اعتـــذار نقلتها لي سكرتيرته التـــي كانـــت بانتظـــاري. لا أعـــرف لـــمَ لـــم

أشعر بأنه خذلني. قلت في نفسي لعل ذلك عائد كون سكرتيرته جميلة وأنيقة وعوّضتني تعب مشواري، بادرتها بصوت مخذول:

- على كل حال، تعرفت على الإسكندرية..
- ألم تزرها سابقًا؟
- لا..

شعرتُ أنها تريد أن تقول شيئًا. بعد أن وضعت كوب العصير على الطاولة، سألتها: هل انتهى دوام عملك؟

كأنها كانت تنتظر هذا السؤال، لتقول لي: كنتُ بانتظارك.. هل تمانع بقبول دعوتي لك للعشاء؟.

سارع رأسي للانحناء تلقائيًا. وقفت بارتباك، أخبرتها أني جاهز.

قبل أن نتجه للمطعم، آثرت أن نقوم بجولة على كورنيش البحر، الأفكار تنهال عليّ من كل حدب وصوب.

ما قصتها؟ ماذا تريد مني؟ أسئلة لا تنتهي إلا لتبدأ أخرى، وأنا صامت، عاجز عن إيجاد جملة مفيدة، غير "المنظر هنا رائع"، "الطقس لطيف".

وجدتها تكلمني: زوجي مات في لبنان.

تأملتها بإمعان محاولاً اكتشاف ملامح وجهها الذي غرق في الشرود.

آسف.. قلت هذا، وتابعت هي كلامها: لم يمض على زواجنا ثلاثة شهور..

بدأت أفكر: هل ما يحدث الآن مجرد صدفة، أم أن مديرها خطط لذلك وغاب عمدًا!. أشعلت سيجارة وقدمت لي واحدة، حاولتُ أن أعتذر لأنها مختلفة عن النوع الذي أدخنه، غير أني قبلت، وأشعلتها. انتظرتُ متابعة حديثها. فجأة تغيرت نبرة صوتها، وأخبرتني أننا وصلنا إلى المطعم.

شيء ما ينقصني، علّه الكلام. كأنني خائف من أن يورطني.

يشرف المطعم على البحر، كست طاولاته شراشف زرقاء يقطعها لون أصفر آخذًا شكل مربعات، على جانب كل طاولة شاشة عرضت عليها لائحة الطعام والمشروبات والأسعار. دعتني لأطلب أولاً، فقلت لها: "على ذوقك".

- ألا تحبَ أن تتناول صنفًا محددًا؟
- أطلب نبيذًا، أما الطعام فاختياره لك.

عيّنت على الشاشة صحنين سمك مع بطاطا وسلطة، وقنينة نبيذ أبيض.

- ستشربين النبيذ معي؟
- النبيذ مشروبي المفضل.

بداية جيدة، قلت في نفسي. تناولت المنديل من على الطاولة ومسحت به يديّ.

زحمة كلام تدور في عقلينا معًا. فقدت جميع مفاتيح الحوار. ماذا تفعل عندما تصاب بخيبة الصمت؛ تتبخر من أمامك الحروف وينزوي الصوت في لسان ميت.. لا يقول شيئًا؟.

هوة شاسعة بيننا ولا تفصلنا سوى طاولة وكوبي نبيذ ورائحة الطعام تحيطنا كهالة من بخور.. ساحرة تبحث عن جني ليكشف لها أسرار الأيام.

الليل يمعن في عتمته. الحركة تتقلص رويدًا رويدًا في الشوارع، وصار بالإمكان سماع البحر من هنا، من على طاولة تحاول أن تمد جسرًا بين قلبين كسرهما الزلزال..

- زوجي كان في مهمة سرية، لم أعرف بوجوده هناك إلا عندما اتصل بي من مطار بيروت. لم تمض ساعة حتى وقع الزلزال.. وانتهى كل شيء.

كنت أسمعها، كمن يسمع قصته. الهموم في كل مكان، لكنني أبحث عنها.. لماذا؟. أنا بحاجة للنسيان الآن، وتحتاج هي للبحث عن المعاناة. قلت.. الحظ العاثر لا نراه إنما نشعر به. وها هو ينقب ذاكرتي بحنين يشوبه الاعتذار.

- حزنكِ يسحقني.

اتسعت عيناها الدامعتان، وبحركة المهزوم بعد انتصار، مدت يدها لتضم يدي بقوة. لبستني قشعريرة، شرع الدم ينتفض في روحي الخاسفة، ضممت يدها بكلتا يدي:

- لنذهب من هنا.

3

خارج الماء

ها أنا ذا المدينة التاعسة
كومة من خرائب
أبنائي أموات
يا للحظ العاثر المشؤوم
آلهة النار أحرقتني
بعد أن هزت آلهة النار أركاني
يا لتعاستي بعد أن كنت مجسم
الجمال،
أصبحت رمادا
هل تبكون عليّ أيها العابرون
الماشون فوق أطلالي
هل تسكبون علي دمعة حزن
هل تأسون لمجد بيروت
بيروت التي لا وجود لها
أيها الملاح
لا تمل بشراعك نحو شاطئ
لا تنزع شراع مركبك
فان المرفأ الأمين أصبح أرضًا
يابسة قفراء
أصبح لحدًا موحشًا
مل عني
سر إلى الموانئ الفرحة التي لا
تعرف البكاء
إلى موانئها سر على صوت قرع
المجذاف
هكذا شاء الإله بوسيدون إله البحر
والزلازل
وهكذا شاءت الآلهة السمحاء
وداعًا يا ملاحي البحار
وداعًا أيتها القوافل الآتية من وراء
الجبال

شاعر إغريقي مجهول

.XX

صفّ طويل من الرجال، وأولاد كثر يلعبون بين السيارات. صوت قارئ القرآن يطوق المكان، أصافح عشرات الأيادي. وفي مكان آخر تتشح النساء بالسواد، أصوات متداخلة تستعيد محاسن خالتي التي وافتها المنية بعد أن داهمها مرض السرطان. لم يتمكن الأطباء من فعل شيء لشفائها، والوصفات العلاجية الشعبية التي تبرعت جارتي هاجر بتقديمها بسخاء لم تجدِ نفعًا.

صوت خالتي جاءني على الهاتف قبل أن تموت بساعات: "أنا ذاهبة إلى أمك وأبيك.." وبعد صمت.. "وهند".

كأنني بت قادرا على تحمل فراق أحبتي... واحدًا وراء آخر.

اكتشفت أن الفراق لم يزدني صلابة بل حساسية مفرطة. تمالكت نفسي، لم أقل شيئا يمكنني أن أتذكره فيما بعد. أبعدت الهاتف وبكيت... بكيت كثيرًا. أذكر ذلك جيدًا.

جثمانها ووري الثرى الى جانب قبور أمي وجدي وجدتي. بعد أن قرأت الفاتحة على روحهم جميعًا، تمنيت أن يكون لهند قبر يمكنني أن أزوره، أضع عليه الورود. لربما كان ذلك يعزيني قليلا، ويجعل من فكرة الموت أخف وطأة بوجود الجسد بعد خروج الروح.

لحظة هبوط التابوت في الحفرة كانت الدنيا تسقط مني، فأنحني وأنحني لعلني أتمكن من تغيير نظامها... دقائق مؤلمة تمتد لتشمل حركة الحياة والموت في مكان محدد وفي زمن أضيق من قول كلمة.

انتبه لعويل بعض النسوة، لأشخاص يضمونني ويبكون على كتفي.. أنتبه أن مراسم الدفن انتهت.. أنتبه أنني أصبحت أمام القبر مباشرة وأنني أضع يدي على الرخام الأبيض وأصمت مجددًا.

أذكر أنني فعلت هذا مرتين في السابق بالطريقة نفسها، مرة أمام قبر أبي ومرة أخرى أمام قبر أمي... لكن هذه المرة كانت اليد أكثر "وعيًا"... كانت تسلّم عليهم جميعًا... وتتحسس جدران بيتهم الأخير.

الناس في ساحة القرية بدأوا ينسحبون... وأنا لم أعد قادرًا على الوقوف أكثر.

ضوء يتلاشى. بحر لبنان يظهر شاسعًا من على شرفة منزلي. حري بي أن ألملم ما تناثر من ذاكرتي في جعبة هذا المساء.

اليوم ذكرى لقائي بكِ.. هند. ها أنا أشرب ما تبقى في هذا الكأس من حكايات.. تجلسين بقربي، بيتكِ جميل.. هذه السجادة التي أعجبتكِ، هذه الكؤوس التي قررتِ شراءها وقلتُ لك: لنصبر عليها بعد... هذه الأرائك التي اخترت ألوانها بعد أن سددنا قسطها الأول.. هذا أنا زوجك.. حبيبك، الجالس بانتظارك. تأخرتِ.. كثيرًا. ألن تشربي نخبنا؟.

- أين كنتِ؟

... أتملاكَ.

- هل أبدو جميلاً بانتظارك؟

تبدو كقلبي، الذي يرنو إليك ولا يستطيع النوم بين يديك.

- أين كنتِ؟

كنتُ هنا، في حناياك، أتحسسُ نبضك، أشمُ عطركَ، أغني لك لتنام.. ألم تسمع نشيدي؟

- سمعت.. كيف لم أسمعه؟

إذًا، لمَ تسألني؟

- لأتأكد.

لن تتغير أبدًا.. يا "توما"؟

- توما لم يشك، إنما أحبّ المسيح.

ها أنا أمامك، لا جراح في يدي ولا رأسي، أنظر.. ولا بقدمي.

- اقتربي.. لا أراك جيدًا

أغمض عينيك.. تراني

- خائف.

ممَ؟

- أن تتلاشي.. كأنك لم تأتي

افتح ذراعيك، واستقبل روحي.

- هند.. أرتعش.. خائف.

.. احمِ شريحتي.. إنها لك، ودعني حيث أنا، أراقبك، أحبك، أخاف عليك.. حاول أن تبدأ.

- لا، لا أستطيع، بدونكِ هند. لم أتخيل للحظة أنني سأفقدكِ. أحتاجكِ معي. لأن نواصل أحلامنا.

"غريب أمري، ها هي التعويذة الشريرة تتفتت شيئًا فشيئًا، والجوهرة التي طالما فكرت وقلقت وتألمت لأجلها، تستقر بين يديك كضوء".

الشتاء كان حنونًا هذه السنة. تعلمت ما معنى أن أحلق بالرغبة. كان الأمر مجرد صدفة، والصدفة كطقس البحر، غريبة وعجيبة كرحلات السندباد.

كنتُ بهيًا بالعرق، ومتألقًا باللهاث المتدفق كريح صباحية.

لا بد أن ندرك الرغبة، ان تدخل فينا وندخل فيها كأفق. وهند التي سقطت من بنات الخيال، ارتمت على واقع تحسسته بكلتا عينيك ويديك وشفتيك...

لا ينتهي الأمر بهذه الحالة، والحياة ما زالت تأتي كالهواء. الذاكرة تجتر أرقها، كأنها تخاف أن ترتاح، تؤرقني، تنغص عليّ وقتًا طالما اشتهيته، وانتظرته، وتمنيته.

أصرخ بكياني: ما بك؟ وقد اكتملت الحلقة المعتمة. هذا أنت، تحسّ كالغابة، بصوت العصفور، وقطرة الندى.

ابكِ كحمامة تشتهي الموت، لكن لا تموت.

تتعقد الحكاية، ويتبعثر مسار اللعبة. ما ستفعله مكرر، وها هي الحياة عصرت نقطة، أوقفت دبيب الكلمات.

أخاف، كما لم أخف قط.

وأتعب، كما لم أتعب قط.

رأسي أيقونة فقدت بريقها، ودهشتها، وغابت في أنفاس اللحظات اللانهائية.

لمَ أكملت نصف الحكاية؟

لترتاح الحكاية.

كنت أبحث عن شهقةٍ وصدرٍ أزرعه دموعًا لأرتاح. لكن ما بحثت عنه كان داخلي، وعندما أدركت ذلك، احتضر، وما ليّ دخل في الغياب.

أنا الرغبة، والحياة.

لم أعِ أن المسألة بسيطة وقريبة لهذا المدى. وطفت كغيمة، أفتش عن زهرة أرويها ما أحمله من حبّ وحكايات، وحينما صادفتها كنت فارغًا كليمونة دون روح.

تبخّر ما كنت أتمناه عندما لمسته. وها أنا أدخل في السؤال الأخير: لمَ خلقتني؟

المرأة أعطت، المرأة أخذت.

مهمّش كقرية نائية، مغيّب كإله.

أدخلك الآن، وأنـــا مـــتخمّ بغـــدٍ لا أعــرف كيــف ألبـــسه، أو أتحايل عليه، ليمضي بسلام. ليتني بقيتُ على بـــاب الحيـــاة، أحلــم بأساطير الداخل، وأتلذذ بخرافات البشر، وأنقّ كدجاجة.

أنتِ الحكاية كلها، وما أفعله وهم السرد وظل البطل، وحدث الكذبة. أخيط الكلمات كحبلٍ مجدول وممتد إلى السماء، لا يوصل لشيء، سوى لبدايته الكئيبة.

حاولت التجدد فيكِ، كما كنت أقول قبل أن أدخلك، إلا انني تعكرت من أول قبلة، أصبحتُ وحل الورق، دمعة مطوية في فانوس المارد الدهري.

خفتُ وأخاف وسأخاف، كفضيحة في عائلة، كخروف لا يدري ما ينتظره في العيد. وددت الكلام عنكِ، إلا انني أعضّ روحي، وأفرشها كرماد العتمة.

لأعود إلى البدء، لما قبل الاكتشاف، ما قبل الصوت، إلى حالة أولى، لحلم لم يتلمس الرعشة.

... ها هي تخرج، لتفتح في رأسي شراسة السؤال. الباب فاتح ذراعيه ليتلقّف غبار المساء الذي يحيك المدينة ويحيكني.

قلت: سأدخّن بعد رحيلك روحي وأوراقي. سخرت، تجهّمت كغول جائع.

... تأتيني، أفتح لك نوافذي، أستقبلك كالفراشات، أخصّك بأشيائي الحميمة والطريفة والساذجة.

هند... نشفت ذاكرتي. يبست أعضائي، والخريف يهلل لصورته المعكوسة في مائي.

هند.. هل تضمينني قليلاً كي أنام؟

.xxi

عدتُ إلى مصر، توجهت فورًا إلى مقر عمل البروفيسور عبد الكريم. استقبلني كأنه كان يتوقع مجيئي. جلست نحو خمس دقائق أشاهد معه فيلمًا وثائقيا عن أثر جديد تم اكتشافه. قال لي: هل تعلم أين وجد هذا الأثر؟ لم يكن ينتظر إجابتي، بقدر ما كان يحاول أن يضفي على الجلسة إثارة وتشويقا. وأجاب: تحت هرم خفرع. تصور أنه كان مدفونا هناك منذ نحو أربعة آلاف وخمسمائة سنة، ولم يتم اكتشافه إلا منذ أيام.

هززت رأسي بالموافقة. مرّت خمس دقائق أخرى، لأشاهد في الفيلم إحدى المومياءات، وقد نُزع عنها غطاؤها، وبجانبها امتد جسد آخر، كأنه جاهز لاستيعاب المومياء.

بدأت أزداد اهتمامًا بمشاهدة الفيلم، مراقبًا كل شيء بالتفصيل.. حتى أوقف البروفيسور الفيلم فجأة، واقفًا بيني وشاشة التلفزيون.

سألني: الشريحة معك؟

- طبعًا.

○ ماذا قررت؟

حالة من الصمت والقلق لفّتا المكان ثم لفّتاني. دخلت في متاهة المستقبل، متاهة الأسئلة التي تلد بعضها بعضًا: هل ستكون راضية إذا عادت إلى الحياة؟ هل ستكون هي نفسها أو انسانة أخرى؟ هل ستبقى على حبّي؟ كيف سأشعر وأنا أضمها، وقد كانت أشلاء؟ هل سأشمّ رائحة الموت عندئذٍ؟ الوقت تجمد، كأنه لا يدور. واقف وسط غيم كثيف ويدها تلوح لي من بعيد. انهيارات تطفو على ملامح وجهي، الكلام ينقبض في مكان ما في صدري، صوتي.. كأن ليس لي صوت، كأني ولدت دونه. أبعد كثافة الغيم من حولي، إلا أنني أغرق، أغرق ويدي لا تلمس يدها. هاتان العينان طالما لمعتا، حوتا شهوتي على الكلام، على كلام يتفجر من قلبي ليعرّش على شفاهي، وأنا بين يديها أتلو صلوات العشق.

هند يا هند.. ماذا تفعلين بي!

ابتسامته الهادئة أعادتني إلى الواقع، ونظر إليّ كأنه يتلمس سجل أفكاري، يطل من ثقب ضيق على براكيني. وبادرني متسائلاً: أنت مؤمن.

فجأة ارتفع صوتي كأني صحوت على ماء يغرق سريري: ما علاقة هذا بذاك؟. ثم واصلت هجومي عليه وسألته: تحدثني عن الإيمان، وأنت تتصرف بمشيئة الخالق كيفما تشاء. وبالمناسبة، ما هو تفسيرك للإيمان اليوم؟

استمر في هدوئه، ثم طلب مني أن أهدأ. سألني إن كنت أرغب بشرب كوب عصير.

احتواني القلق، والشك.. الشك من نفسي.. رغبتي الحقيقية في أن تعود هند من الموت، تراخيت على المقعد.. كأن أمرًا ما سيحدث.

قدّم لي العصير، وذهب ليجلس خلف مكتبه. بعد ثوان من مراقبتي، اقترح عليّ أن أذهب إلى استشاري نفسي.

أجبته، وكأنني موافق على اقتراحه: قبل أن أذهب، أريد أن أسمع منك ردًا صريحًا على هذا السؤال: ما مدى إمكانية عودتها إلى الحياة؟

- مئة في المئة..

كأنني لم أفهم ما قال، وأعدت السؤال: كم؟

- مئة في المئة.

أعادها بنبرة حازمة واثقة متأكدة. ثم اقترب مني، وابتسامته ترتسم على فمه وعينيه... وحتى يديه: ماذا قررت؟

سؤاله أعادني إلى الواقع، إلى نفسي التي أحسست أنها فارقتني. وجدتني أطرح سؤاله من جديد: ماذا قررت..؟ قاطعني صوته: خائف؟

أنا خائف؟ سؤال دار في رأسي، حتى رأيته ينبت على مسامي. مددت يدي لأضم كأس العصير. لماذا أرتجف؟.

قطع تحذيره لي هالة الصمت التي هبطت على المكان: مهما يكن قرارك، المهم عندي أن يبقى حديثنا سرّا، وما شاهدته على التلفزيون.. أيضًا.

- أفهم من كلامك، أن عملية "إعادة الحياة" مازالت قيد التجربة.
- لا.لا. قطعنا شوطًا كبيرًا. نجحت معظم التجارب التي قمنا بها.
- على البشر؟
- بداية على الحيوانات، ثم على شخص واحد. ونواصل الآن مع المومياءات.
- الشخص ذكر أو أنثى؟
- أنثى.
- هل تغير شيء فيها بعد أن عادت؟
- لغاية اليوم، لا. إنما تعاني من فقدان جزء كبير من ذاكرتها. لكن لا يمكننا تحديد ذلك، فهي لا زالت صغيرة.
- هل كانت متزوجة؟
- نعم..
- يعني..
- يعني ماذا؟

- فاقدة الذاكرة!
- يمكننا إدراك الخطأ، لكن..
- لكن ماذا؟
- أريد منك ما دونته هند في شريحتها.
- لماذا..؟ منذ قليل قلت أنكم قمتم بتجارب ونجحت.
- هند على ما يبدو، تناولت المسألة بأسلوب مختلف على ما أذكر. يهمنا أن نقوم بتحليل ومقارنة بين تحليلاتنا وأبحاثنا مع ما توصلت إليه.

يا للمصادفة.. هند تعيد هندًا إلى الحياة!!

سلمته كل شيء، وسألته متى يتم ذلك؟ قال خلال ستة شهور. وقبل أن أتركه، عاود سؤاله السابق: هل أنت بحاجة إلى استشاري نفسي؟

قلت له بصوت متقطع : لا.. إنما بحاجة إلى نفسي.

وفيما أستعد لمغادرة المبنى، سمعته يناديني عبر الرجل الآلي: في حال أردت تغيير قرارك، أي لا تريد الحياة لهند، آمل أن تعلمني بذلك قبل 21 يومًا من تاريخ اتصالي بك لأعلمك عن بدء العملية.

.xxii

(أنقر هنا)

وصايا أم الى ابنها

مشهد 1:

يا بني لا تكن مثل ابيك، كن أنت.

يا بني، الناس ثعابين والواحد منهم ليس هو إنما انظر خلف القناع واحترس.

الناس وجع فاحرص من ابرهم وشوكهم فلا تقترب، واحرص على المسافة، قد يقتلونك وهم يضحكون.

يا بني، لا تنتقد الخداع إذا كنت مخادعا بل دافع عنه، ولا تنتقد الكذب إذا كنت كذّابا بل دافع عنه، ولا تنتقد الجبان إذا كنت جبانا بل دافع عنه، ولا تنتقد المكر إذا كنت ماكرا بل دافع عنه.

لا تقدم للناس صورة ليست لك قدم ما أنت حقيقة، ولا تخف لأنهم ببساطة سيعتقدون أنها ليست لك.

يا بني، الشهامة أن تهادن هذا وتمدح ذاك وتتملق لذلك فان أحببت أن تكون كذلك فاحترس.

مشهد 2:

يا بني، لا تؤمن بأحد بل آمن بالله الذي فيك فهو ال "أحد".

لا تدخل جامعًا ولا كنيسة ولا كنيسًا بل ادخل الى قلبك وصلّ إذا رغبت.

يا بني، ان لم تقدر ان تكون ذئبًا كي لا تأكلك الذئاب، فابق كما أنت ولتأكلك الذئاب. ويمكنك أن تخاف وأن تبكي وأن تصرخ فلا بأس المهم أن تبقى ما أنت قادر عليه.

يا بني، أوصيك ونفسي بتأمل المرآة كي لا تنسى وجهك في الأيام، كي لا تنسى أن تحبّ نفسك، وكي لا تنسى أن تدخل جهنم وليذهب الآخرون إلى الجنة.

لا تطلق مزاميرك الا على من لا يسمع، ولا تعترض إلا بعد أن يمضي الجميع الى تعبهم.

يا بني، لا تكافئ أمك وأباك على شيء، وان أردت ان تعرف فاعرف: ان الحب لا يوازيه "شيء" إلا الحب .. فتدبر.

يا بني، لا تكافئ من يزرعك في قلبه، إنما كافئ المسيء وضعه فوق رأسك... كي تحافظ على وجعك وتحميه،... كي تتسع لا مبالاتك وتعشوشب بالخيبة.

مشهد 3:

يا بني، الحكّام أصناف، وأشدهم فتنة من يكرّم المغرورين،
فإما ليرفع عنه الأصابع، وإما لأنه السبب وراء هذا الخراب، فتدبر
واحزم.

يا بني، اعتذر عما فعلت، كي تشعر بالحرج عندما تقف بين يدي
الشيطان.

مشهد 4:

يا بني، بالله عليك لا تمت قبلي، كي لا أموت بعدك مرتين.
كن "إنسانا" كي أحبك أكثر، ولا تكن "حاكمًا" أخاف منه وعليه.
يا بني، الناس كالطقس فانتبه على رئتيك من الهواء الفاسد.
يا بني، كلنا خطّاؤون، لكن عندما يسكنك الشيطان دارِ اغواءه.
الحكمة هي كيف تناغي الشيطان والملاك فيك. الحكمة هي كيف
تبقى أنت.

مشهد 5:

يا بني، لعلني هكذا اتطهر بحبّك، أفرش المسافات بورد الكلمات علني أتنشق عطر قلبك. أخطائي - يا بني - كثيرة، ومحبتي - يا بني - كبيرة، ولا أعرف من سيقصي من... الخطأ أو الحب؟

أحيانا نلعن أنفسنا ليل نهار على أننا اعتذرنا، لكن عليك دائما أن تفض بكارة الزهرة لتستمتع بعبيرها.

الوقت كفيل بأن نمحي ندمنا على أخطاء اقترفناها عمدا... فلا تحزن.

مشهد 6:

يا بني، ابتعادك عني يؤلمني، أشتاق إليك الى أسئلتك التي تبدأ دائما.. ولا تنتهي. أشتاق الى اصغائك للحكايات إلى ضحكتك التي تفرح قلبي. عندما أسمع صوتك تجري في ضلوعي الأنهار، وتنبت في روحي الأزهار، وعلى يدي تكبر العصافير.

يا بني، لم اعد قادرة على الحنين، فاض مني الشوق وتعب الكلام.

انها تتدحرج يا بني، أنظر الى قلبك، أنظر... انه يفيض بالماء

هل تكفيك مناديل الفراشات؟

(هند: ذاكرة 33: سري- ملف 0098)

.xxiii

السماء توشك على بذر محصولها. الهواء يهم بالانسياب من نوافذ الأرض قاطبة، وهناك على المرفأ امرأة تنتظر رجلاً هزمته أسئلته، كلما همّ بالتقاط جواب خرّ على بركة من علامات الاستفهام.

ماذا أفعل؟ سؤال رددته قبل ثوانٍ من ملامسة يدها التي امتدت من داخل معطفها الكحلي. جاهدت في رسم ابتسامة، كلمة، حركة.. وقبل أن أعلن رسوبي جاء صوتها لينتشلني من وقت لا يدور.

- اسمي ماري.

تذكرت أنني لم أسألها عن اسمها. وتذكرت أنني تركتها، بعد خروجنا من المطعم، على سرير في فندق قديم على بحر إسكندرية. ألملم ما تبقى من سكون شيء لم تسرِ به الحياة. وكأن حروفًا لفظتها أنفاسي فنسيت وسمّيتها "هند". جرحتها مرتين؛ باسمها، وبسقوط رايتي التي أبت أن ترفرف.

المشهد يكتسحني من جديد. ها أنا مهزوم مستسلم قبل أن تدركني معركة الخطوة الجديدة. هامت في المشهد وصية هند لي "أن أحافظ على شريحتها.. وأن أبدأ من جديد". إلا أنني نكثت الأولى.. شريحتها الآن في مختبر التشريح، فهل أنكث وصيتها الأخرى؟.

- o ما رأيك أن نذهب إلى بيتي؟
- أعتذر..
- o كما تحب
- عفوًا، لم أسمعك جيدًا. ماذا قلتِ؟
- o عمّ تعتذر إذًا؟
- بسبب ما حدث ذاك اليوم.
- o لو لم يصبك ما أصابك، لكان حدث معي الأمر نفسه.

المطر بدأ يوقظ الحياة النائمة؛ يدق على النوافذ، يبلل الشوارع والأشجار، ينقر وجه البحر، يطلق سراح عطر التراب. الحياة تدبّ في كل مكان، حتى كادت أن تلامسني. إنما سؤالها الذي خبا منذ لقائنا الأول عاد يطرق زجاجي.

- o من هي هند؟

ابتسمت، حاولت أن أضحك، لا استخفافًا بسؤالها، إنما من نفسي.

من هي هند؟.. هل يمكنني الإجابة على هذا السؤال؟

- هند ماتت في الزلزال، مثل زوجك.

كلمات مقتضبة، سريعة، كومض البرق الذي يلمع داخل بيتها ليفضح اثنين ساذجين متسربلين بالهرب من الذكريات.

شربنا حتى بدا الواحد منا بالكاد يرى الآخر. ثرثرت كثيرًا، لا أذكر الآن شيئًا سوى خيط كلامها الذي فرش أرض البيت وجدرانه وسقفه وأثاثه، لو كانت النوافذ مفتوحة لكان فرش مصر كلها. لم يعد في رأسي مكان لسماعها، كنت ألمح شفتيها المجهدتين تفتحان وتغلقان. وأنا أحاول نصب عصا بين جفني كي لا تطبقا.

أسأل نفسي الآن: هل فعلت شيئًا آخر؟ حقيقة، لا أذكر، فالمشهد الأخير الذي يلمع في ذاكرتي أنني وضعت فمي على فمها، لا رغبة مني في تقبيلها إنما لأرتاح من سيلان ثرثرتها، بعد ذلك لا شيء، كأنه شريط فارغ، لا تسمع فيه سوى الصمت.

عدّت إلى وعيي مع صوت أذان الفجر، صوت المؤذن كان يخترق النوافذ المغلقة بإحكام، ليلقي القبض على البيت بأسره، وبإحكام أيضًا. بدرت مني حركة، جفناي يرتفعان ببطء شديد، كأن الكرة الأرضية تغرز قدميها بهما، ومع انتهاء الأذان أدركت أننا على أرض الغرفة. رأسها متغلغل في صدري، وأنا نصف عار. أما هي فيبدو أنها كانت تحاول نزع ثيابها إلا أنها فشلت في ذلك.

سؤال تملكني بعد أن انتهى الأذان: من لا يؤمن بأي دين على الأرض، وأراد أن يصلي، ماذا يفعل؟.

.xxiv

جمرة صغيرة واقعة من النرجيلة دستها لم أشعر بها بداية، ثم شعرت أن شيئا ما يخترق قدمي، انتبهت، حاولت أن أبعدها باصبعي.

أتربع كعربي يعبره التاريخ، و"بيل غيتس"، و"اتفاقية الشجرة"، و"منظمة الانسان العالمية".

نلوك شيئا أخضر نكتنزه في فمنا كخلاص أخير، نستمع إلى إيقاعات كنّا لا نطيق سماعها. وبكرمٍ أصيل، مدّتني ماري بالأغصان الخضراء النقيّة كقلبها. ونلوك ونلوك ونمتص أيامنا بارتباك مدهش.

العرق ينزّ من جسدينا بهدوء، نمتصّ السيجارة كأنها متعة أخرى.. كذلك النبيذ الخارج من رحلة الغليان الذي يشبهنا.

من أين تأتي الثورات؟ كيف تصاغ الحروب؟

أسئلة طرحناها وضحكنا... لا داعي لشيء سوى الانتباه لما ينساب من "الأخضر" الى داخل الروح.

نحتاج إلى الاسترخاء.. إلى نفس لم نأخذه طوال نهارات سابقة. حاجة لأن نتأمل.. نتمايل قليلا مع الإيقاعات، ننتبه الى نواح

المطرب وولعه بحبيبةٍ هجرته صباحا. هو يجلس كرجل خاسر يندب حظه.. والدنيا.

نتحدث بطلاقة، ألتفت إلى ماري:

ثمة قاعدة شرعية: "الضرورات تبيح المحظورات"...

أصمت، ماري تنتظر ما سأقوله، فأبتسم:

"... وحياتنا كلها "ضرورات"".

أقترب منها: هل تعلمين أن الانتصار في الحرب، هزيمة أخرى للانسانية!.

نضحك.. ثم أقوم، أحاول أن أنتعل ما تبقى من يومي، وأجلس لأكتب ما كتبته الآن، وأسأل: هل ما زال النهار بعيدا؟.

لملمت أطرافي المشتتة، هند ما زالت مرتبة في دورة دمي، في الهواء الذي أتنفسه بقلق.

المطر في كل مكان. وصوت نغمة موسيقية تصدر من مكان ما. التفت كانت ماري ترتدي خجلها، وقربها كان الصوت يخرج سلسًا هادئًا منسابًا. ظننت، بداية، أنه يخرج منها، وعندما سارت قليلاً رأيت كمبيوتر الموسيقى.

سمعتها تقول شيئًا، متأكد من ذلك، شفتاها تتمتمان، تتحركان. ثمة غيمة تعبرني. وقوة تدفعني إلى الوراء.

- عندما كنت صغيرة، كانت مريم العذراء سيدة أحلامي، تأتيني بحالات مختلفة، وبوجه واحد تعلوه الابتسامة، ودمعتين تبرقان داخل عينين تختصران دهشة الحياة. كانت لا تكلمني، لا تقول شيئًا. تقف في مكان ما قريب من حواسي، تتأملني. أحاول أن أتمرغ في حضنها، أقترب، ألمس نعومة ثوبها الأبيض.. إلا أنني أستيقظ. للآن أحاول أن أفسر ذلك، ولا أصل لتفسير. ربما لأن اسمي مثل اسمها!. أو لأن أبي القسيس كان يمنعني من لمس صورها عندما كنت صغيرة، خوفًا من أن أكسر إطارها المذهّب!. أحبّ مريم، لكن منذ سنوات فقدتها من أحلامي. أين ذهبت؟ لماذا ذهبت؟

لامس سؤالها غيمتي، كان بمثابة القشة لغريق. عدت إلى حيثيات الواقع، أدركت أين أنا كليًا، بعد أن تهت وفقدت ومضات وعيي. هل تثرثر؟ لا. لا.. كلامها خارج الثرثرة، والكلام الفائض. انه يدثرني. يطوف بي، لأدخل إلى شواطئ طفولتي.

- قليلة هي الأحلام التي أتذكرها، ربما لأنني لا أحلم، أو بالأحرى أخاف الأحلام. لا أعرف سببًا لذلك تحديدًا، غير أنني أتوهم أنني سمعت مرة حديثًا لجارة أهلي، كان يدور، على ما أتخيل، حول هذا الموضوع، كانت تقول، أو خلتها

تقول: إذا سعدنا بمشاهدة أحلامنا أثناء النوم، فهذا يعني أننا سنفقدها من حياتنا إلى الأبد. لذا، أخاف على أحلامي، أحاول أن أطلق سراحها قبل أن أنام... أكره الليل، وأعشق الصباح.

كانت تتأملني، فيما تعدل من جلستها، كأن في عينيها ارتسم سؤال. ودون أن انتظر سماعه تابعت كلامي، دون ترتيب، دون ذاكرة جاهزة.

- الصباح بريء طاهر لا يعيشه سوى الباحثين عن لقمة عيش نظيفة وطلاب المدارس، أما في الليل فيفيق اللصوص والأشرار، وفيه تحاك المؤامرات والدسائس. لا أعرف سببًا لاعتقادي، ذلك يعود إلى سنوات خلت، عندما كنت في سن الثالثة عشرة. ما زلت أذكر ذاك اليوم وكأنه البارحة. كان يوم ميلادي، والساعة تقترب من الثامنة والنصف عندما رن الهاتف، ردّ والدي، وما هي إلا لحظات حتى تغير وجهه، فوضع يده على صدره، وأخذ يلهث، يتنفس بقوة، شهيقه وزفيره يخرجان بقوة وتقطع. وضع يده على كتفي ليجلس على المقعد، لكن الموت كان أسرع، فخرّ على الأرض، دون صوت.. دون أن يقول شيئًا. أذكر أنه كان ينظر إلى أمي نظرة تحمل الكثير من الكلام والرجاء، ونظرة أخرى

رمقني بها قبل أن يقع، علّه كان يريد أن يوصي أمي بأن تعتني بي.

أخذت سيجارة، فأشعلتها لي بعد أن صبّت لي كأس نبيذ.

- ○ من اتصل؟
- رئيس الحكومة.
- ○ رئيس الحكومة؟
- عفوًا، نسيت أن أخبرك أن والدي كان وزيرًا في الحكومة اللبنانية.

شعرت أن نظرتها نحوي اختلفت، كانت عيناها تلمعان بوميض خفي، وبدا عليّ ساعتئذٍ الرفض، وتمنيت أن أخبرها أن منصب والدي لم يكن يعني لي شيئًا، غير أنني لازمت عدم الكلام حول هذا الموضوع، وتابعت:

- لا أجد وصفًا لما حدث إلا لفظة: مؤامرة خسيسة. حاكها نائبان في البرلمان فصدّقها رئيس الوزراء، بعد أن تسربت إلى الصحف... المتأكد منه أن أبي بريء، وعلى كل حال اتضح ذلك فيما بعد، لكن بعد أن مات.

المطر لم يكف عن السقوط، هلّ على ذاكرتي مقطع من قصيدة لشاعر عراقي عاش في منتصف أربعينيات القرن العشرين، يدعى بدر شاكر السياب، فرحت ألقيها بصوت خافت:

"أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء – كالدم المراق، كالجياع،
كالحب، كالأطفال، كالموتى – هو المطر.."

كانت تصغي فيما كانت تداعب أصابعي الحارة. أعدت إلقاء المقطع بصوت مرتفع، وأعدته ثانية وثالثة ورابعة... ودخلت معي في اللعبة وصرت أقول كلمة وهي تقول الأخرى مباشرة.

ما يحدث كان نوعا من الجنون، الهستيريا، البكاء كلامًا.

"أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
..."

هند، أتعلمين..؟

الخوف يسربلني. الشعور بالإثم والخيانة يجتاح مساماتي، يعطلني عن التمييز بين الجمال والقبح. هل نحتاج إلى الخيانة والكفر لنسارع إلى طلب المغفرة والسماح؟. سؤال بدا صعبًا عليّ، كان يأتيني متدثرًا بتبرير أن الخيانة بالجسد لا تعتبر خيانة، والخيانة الحقّة هي خيانة الروح.

هل ما زالت روحي طاهرة؟ نقيّة؟.

أحيانًا أو نادرًا أو ربما نعجز عن إيجاد الشرفة الملائمة لنـــور الكلام.

تذكرتكِ مرات، وفي كل مرة أدركتُ أنني لم أتذكر شيئا.

ربما، هكذا هو العطر.. نشمّه نتعطّر به، نحلّق برذاذه غير اننـــا لا نجد بابًا لرؤيته.

وأنتِ عطر.

ربما، حدسي بك جميل.

لذا، ها أنا لا أجد الجياد التي تحمل كلامي لكِ وعنكِ.

لعل الصمت عطر آخر.

هند:

أيهما أقسى: الموت أو هجرة من نهتم لأنفاسهم حينما يحطمـــون جموحنا، ويقولون لنا: كن فنكون؟.

أيهما أقسى: الرحيل أم البقاء في كسرة الخاطر؟.

أيهما أقسى.. الجرح أم الصراخ وكلاهما واحد؟.

وقفت في باب التفاصيل وقلت ما رأيت. ما مرّ في المزاج..

ربما متّ مرة، ربما غنّيت مرة، ربما تلسعنا الذكرى كبـــرد لا ننتظره.

ربما نجرح القمر قليلا لنقول إننا عشّاق.

لا جرأة لنا على عبور الرحيل أو الانتحار.

هي الحياة هكذا... هو الموت هكذا ، جبل أحيانا لا نراه.

متّ هنا، لا أقدر على امتلاك التنفس.

لذا، ألملم ما تبقى من جسدي وحبري، وأتكوّر أكثر.

هند: هل تعلمين كم صفحة أخط بيميني نهارًا لأكتبك؟

وليت الأمر ينتهي هكذا، ففي الليل اجلس تلميذًا نجيبًا أحاول تفسيركِ..

كيف يمكنني أن أتوازن بحبك؟ وأنا محاط بكل هذا الورق والبياض والكتب والمراجع والهوامش!.

أحيانا أفكر أن انتفض على كل هذا وأمزق كل شيء، وأن أستقيل من حبكِ.

لكن.. كالعادة أجد نفسي مطيعًا لكل هذا، وأعاود ممارسة المشي نحوكِ.

"قلبت" القصة غمًّا على ما يبدو:

ما رأيك في أن أقود حملةً أرفع فيها شعارًا: أكتبكِ إذًا أنا موجود؟.

.XXV

بتّ شبه عاجز عن ترتيب أفكاري، الحياة التي عشتها لم تكن غير سراب مرّ أمامي؛ ألحقه، أركض وراءه، وعندما أصل يرتسم الواقع بفراغه الصارخ.

وصلت الى قناعة أن الحياة تكون عندما نراها، فهي قائمة بقيامنا وتنتهي بغيابنا. كل ما حولنا وهم مشترك في ذاكرتنا كبشر، الحضور يتوالد كلما رحلنا بعيدًا في النظر، ويزول تدريجيًّا بانحناء زاوية الرؤية. أنا أرى إذًا ثمة وجود، أنا لا أرى يعني لا شيء، وهم سراب. أنا الوجود وأنا في الوقت نفسه الموت.

القرار.. نسيت القرار، ونسيت أن العالم محمد علي عبد الكريم سيبدأ باعادة خلق هند ان لم أرد عليه خلال 21 يومًا.

ماذا أفعل؟ ما هو قراري؟ هل اذا عادت هند الى الحياة ستكون هندًا التي أعرفها؟ أم هند أخرى.. لا أعرفها؟ هل ستحبني؟.. ماذا أفعل؟ من يجيبني.. يريحني ويأخذ عني القرار المناسب؟.

لحظات بل ساعات، وأنا قابع في حيرتي.. سجائر لا تنتهي، والأسئلة والاحتمالات كذلك.

قررت مسايرة الامور كما هي... خوض التجربة حتى نهايتها. وما فعلته انني تمنعت عن الاتصال بالعالم عبد الكريم خلال المهلة التي حددها.

الأيام تمر بسرعة ومشاهد الدمار التي خلفها الزلزال لا تفارق مخيلتي، الصور تبرز واضحة... الحدث كما نقلته الصحف، المكان الذي زرته مباشرة بعد الزلزال.

كلما يمضي الوقت الى الامام بثبات وحزم، الحياة تعيد ذاكرتي للوراء. صورتان تتقاطعان في رأسي، كل منها تشدني الى جانبها.

"هزات ارتدادية ما زالت تسجل صباح اليوم الثلاثاء في العاصمة بيروت بعد عشر ساعات على الزلزال الذي ضربها أمس وأسفر عن سقوط....".

وأفاد مراسلو الوكالات ان السكان شعروا بالهزات الارتدادية بانتظام طوال الليل، خصوصا عند قرابة الساعة السادسة (الرابعة بتوقيت غرينتش). وأمضى عدد كبير من الاشخاص الليل في الحدائق العامة والسيارات والطرقات خوفاً من وقوع زلزال جديد.

احدى الناجيات كانت تبكي، ثم شرعت بالغناء، توقفت لتتلو الصلاة، وبعد قليل انهارت ووقعت على الأرض. أخرى كانت تولول: "لماذا غضبت الأرض علينا؟ قولوا لها إننا نحبها..." ومسحت وجهها بمنديل ملطخ بالدماء.

عدد القتلى في ارتفاع، في ظل تصاعد مشاعر الاحباط والغضب. اصطف السكان ممن شاءت الصدفة أن يبقوا أحياء في طوابير طويلة للحصول على المساعدات الاغاثية.

التنفس هنا لم يعد مسألة عادية، رائحة الجثث تطوف في المكان كأنها جزء أساسي منه، ليتشكل المشهد مع الدمار الذي يربض في كل مكان.

الحكومة المؤقتة قالت في بيان لها: "نسعى جاهدين لبذل أقسى ما يمكن لتخفيف المعاناة والمأساة على من بقي حيًّا، بعد الكارثة... قلوبنا حزينة وعيوننا دامعة فهؤلاء الضحايا اخوتنا وأخواتنا وأهلنا وأصدقاؤنا وأحبتنا.. وها هم راقدون بلا حراك في الشوارع وتحت الخراب والأنقاض... نطلب من الجميع ضبط النفس، والصلاة على أرواحهم".

اليأس يرتسم على وجوه الأطباء والممرضات في المستشفيات الميدانية، فأغلب الحالات التي وصلتهم كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

في احدى المجلات المهتمة بالبيئة، نشرت عما حدث سنة 551، تحت عنوان:

"زلزال 551 وتسونامي بيروت في كتابات مؤرخين قدماء"[1]:

---

* راغدة حداد، مجلة «البيئة والتنمية» عدد شباط /فبراير 2005، وجريدة الحياة 31- 1- 2005. (كاف)

في صيف سنة 551 الميلادية ضرب زلزال عنيف القسطنطينية وأجزاء أخرى من الامبراطورية البيزنطية. فدمر كثيراً من المدن تدميراً تاماً، ومنها بيروت (بيريتوس آنذاك) درة فينيقيا، التي تحولت كنوزها الأثرية ومعالمها الحضارية أكوامًا من الانقاض سحقت تحتها ألوف من السكان والوافدين. وكان بين هؤلاء طلاب قدموا من بلدان بعيدة للدراسة في مدرسة الحقوق الشهيرة، التي نقلت لاحقاً الى صيدا (صيدون) ريثما يعاد بناء المدينة المنكوبة. وقد نجمت عن الزلزال موجة بحرية كاسحة (تسونامي) أغرقت كثيرين في البحر وعلى الشاطئ.

المؤرخ يوحنا مالالاس (490 ـ 570) كتب عن تلك الكارثة:

"في اليوم السادس من شهر تموز (يوليو) حدث زلزال مروّع في كل أرض فلسطين والعربية وبلاد ما بين النهرين وأنطاكية وفينيقيا البحرية. وفي هذا الرعب عانت المدن الآتية: صور وصيدون وبيريتوس وبيبلوس (جبيل) وتريبوليس (طرابلس) وأجزاء من مدن أخرى، وقضى أناس كثيرون.

وفي مدينة بوتريس انهار جزء من جبل محاذٍ للبحر يدعى ليثوبروسوبون، وسقط في البحر، وكوّن ميناء باتت السفن الضخمة قادرة على الرسو فيه (حيث رأس شكا حالياً-

شمال لبنان). ووقت حدوث الزلزال تراجع البحر مسافة كبيرة، وغرقت سفن كثيرة. وبقدرة الله عاد البحر لاحقاً الى قاعه الأصلي".

وكتب يوحنا الافسوسي (507 ـ 586):

"عبرة للأجيال المقبلة، سنسرد عن كارثة رهيبة حدثت في مدينة بيريتوس أثناء الزلزال الذي دمر المدن. ففي خضم الارتباك الرهيب، عندما ارتد البحر بقدرة الله وتراجع عن بيروت ومدن فينيقيا الساحلية الأخرى مسافة ميلين تقريباً، أصبحت الأعماق الرهيبة مرئية. وفجأة صار في الامكان مشاهدة مناظر مدهشة وسفن غارقة بحمولاتها. وبعض السفن التي كانت راسية في الموانئ استقرت على قاع البحر، وبقيت بقدرة الله منتصبة وجافة بعدما انحسرت المياه بعيداً. وسارع سكان المدن والبلدات الساحلية الى البحر في اندفاعة جسورة لينهبوا الكنوز الضخمة التي تراءت لهم في القاع. ورآهم آخرون يعودون مثقلي الأحمال، فسارعوا الى القاع كي لا تفوتهم الكنوز المحجوبة التي كشفها الزلزال فجأة. وكان الجميع يتراكضون هنا وهناك بارتباك. فجأة أتت موجة هائلة لم يلاحظها أحد أعادت البحر الى عمقه الأصلي، فالتهم في أعماقه جميع أولئك البائسين. ومثل فرعون، نزلوا الى الأعماق وغرقوا كالحجارة، كما هو مكتوب، وطرح الله مياه البحر فوقهم، ووجدت أجسادهم طافية على الأمواج كالنفايات.

في أنقاض المدينة المدمرة بالزلزال شبّ حريق عظيم رمَّد كل شيء. حتى الحجارة تحولت الى كلس. عندئذ أرسل الله المطر من السماء لمدة ثلاثة أيام بلياليها، فأخمد النيران التي أحرقت بيريتوس. ومن نجا من هجمة البحر وانهيار المدينة خرَّ جريحاً أو هالكاً من العطش، لأن قنوات المياه في المدينة دمرت".

عندما زار أنطونيوس البلاسنتي (من إقليم بياسينزا في شمال ايطاليا) المنطقة المنكوبة سنة 570 في رحلة حج الى فلسطين، مر عبر طرابلس وجبيل وبيروت. ووصف خط رحلته على النحو الآتي:

"دخلنا سورية عن طريق جزيرة انثارادوس (ارواد)، ومن ثم دخلنا الى تريبوليس التي دمرها الزلزال في زمن الامبراطور يوستينيانوس. ومن هناك أتينا الى بيبلوس التي دمرت أيضاً مع سكانها... ثم قدمنا الى بيريتوس الرائعة التي كانت فيها مدرسة الحقوق قبل زمن وجيز. الزلزال دمر المدينة، وأخبرنا رئيس أساقفتها أن نحو ثلاثين ألف شخص هلكوا في وقت وجيز".

ذاعت شهرة رؤى مروان وحديثه الذي بثّه عبر التلفزيون: ان الكوارث الطبيعية الاخيرة، تشير الى قرب نهاية العالم، وتمهد لعودة المسيح القريبة، وان هذه الامور بدأت تضرب بشكل دوري مذهل، مذكرا بالاعاصير التي ضربت أفريقيا الواحد تلو الاخر، وزلزال لبنان.

مروان أسس "اتحاد الرؤيا"، وأبرز ما يجمع عليه الاتحاد، أن "نهاية العالم" ستسبقها ثورات سياسية وكوارث جيولوجية، ويصنف الحوادث الاخيرة كاشارات مسبقة.

عندما التقيت مروان لأسأله عن صحة ما يشاع عن رؤاه، فتح الكتاب المقدس، وقال: "المسيح سيعود يوما ليعيد اطلاق عصر جديد. وقبل ان يصل هذا العصر الجديد، سنشهد أياما صعبة تشبه مخاض المرأة الحامل".

.xxvi

o سلام

- من؟

o الدكتور عبد الكريم

- الدكتور عبد الكريم..؟ أهلاً أهلاً.. نعم دكتور

o العملية تمت

- نسبة النجاح؟

o مئة بالمئة

- جيد.. أراك غدًا

العملية تمت، روح هند عادت الى الحياة. لحظات مررت بها، أعجز عن صياغة حروفها. هو الفرح، الخوف، الدهشة.. ربما هي الدهشة في ذروة تجليها. لم أعد أتمكن من الجلوس على المقعد لثوانٍ، المكان ضاق بي، انه يخنقني.

سلام عليّ.. سلام عليّ.. سلام عليّ.

رددت هذه الكلمات، لا أعرف كيف، ومن أين جاءت، لساني يثرثر، لا يكفّ عن قول كلمات، لا أعرف من أين تخرج، أفاجأ بسماعها، بحضورها في صمتي. أذهب الى المرآة، أتأمل وجهي،

أمسح الطاولة بالمناديل، أشرب بإطراد، لا أكفّ عن شرب الماء، أذهب وأجيء، أقف خلف الزجاج، البحر صغير، عيناي تتسعان لتؤطرانه في مساحة أستطيع أن أراه في نظرة واحدة، في لحظة واحدة.. كل شيء ضاق، كل شيء بات يصغر: يا إلهي ماذا أفعل؟ يا إلهي ماذا فعلت؟.

هند عادت.. فتاتي ظهرت ثانيةً في الوجود. قلبها ينبض في مكان ما في مصر، انني أسمع نبضها، يطنّ في رأسي.. الصوت لا يتوقف، يصبح قويًّا عاليًا، نبضها يهزمني، يجتاحني، يجعلني أتكور كجنين.

عندما تنمو الحكايا في ذاكرتنا تهرّ. يصعب أحيانًا أن نلتقط خيط الغياب، نحضر بكامل ثيابنا وأناقتنا غير اننا نتلعثم بالكلام، فنكتب هذه التفاصيل الهاربة، هذا الوجع الشفيف الضارب في التعب حيث كل شيء يغرب عنّا؛ الحب والنساء والخمر والسماء والاحلام... والأوطان. فجأة، نشعر أننا نفيض بكل هذا الحضور. فنقف، وتصبح الخطوة اتجاها صوب الأسئلة الشاسعة.

هل ستحبني؟.

.xxvii

تضم أصابعها بتوتر ملحوظ، وفي أعلى العنق على اليسار ملامح "شامة" لم يتضح لونها بعد، العين اليمنى لم تفتح بالكامل، فيما اليسرى تختبئ خلف جفن متعب. البشرة لونها قمحي، وعلى الفم ارتسمت دائرة مبعثرة تبحث عن شكل ما للصراخ أو التثاؤب. كانت تهزّ بيديها، وكنت أتأملها بحذر، كأني كنت خائفًا أن يؤثر تأملي في جسدها الطري الصغير.

نظرت الى الممرضة مبتسمًا، فبادرتني بنظرة لا تخلو من الحدّة والصرامة. بحثت عن شخص يبتسم في هذا القسم، لمحت من بعيد امرأة تناغي طفلها، وبعد قليل، ارتفع صوتها لأسمعها تغني له كي ينام.

"الوضع الصحي العام مطمئن، وحركة الدم في الشرايين جيدة، كذلك، النظر والسمع سليمان".

هذا ما قاله لي الطبيب الذي قام بالفحص الدوري لـــ "هند". ثم طلب مني أن أتحدث مع الدكتور عبد الكريم، كي أوقّع على بعض الأوراق.

- وقّع هنا.

بعد أن وقّعت، قرأت في البند الأخير، أنا والد الطفلة المولودة بتاريخ 25- 12- 2034 م....

رفعت بصري الى الدكتور عبد الكريم، غير مصدّق، فبادرني بابتسامة خبيثة: أنت الآن والدها رسميًا.

أصبت لثوان بحالة لا توازن، بغياب جزئي عن العالم، ثم عدت الى قراءة الورقة بين يدي. وسؤال واحد خرج من روحي: كيف؟

ساعدني الدكتور عبد الكريم في الجلوس، وبدأ يحدثني. أذكر أنه تحدث كثيرا، وأنا أنظر اليه... الابتسامة لم تكن تفارق فمه.

.xxviii

جنون يلفّ الأرض كلها، فالجميع صغارًا وكبارًا يزرع شجرة، بعد أن أعلنت المنظمات الدولية عن خطورة الوضع البيئي الذي بات يهدد سلامة الكائنات الحيّة على الأرض من بشر ونباتات وحيوانات.

الشجر يُزرع على أرصفة الطرق، وفي منتصفها، وأمام البيوت، والجوامع، والكنائس، وفيما تبقى من مساحات ترابية.. أشجار من الأنواع كافة وبأحجام مختلفة.

ردة الفعل هذه، بدأت تثمر بشكل بطيء جدًا في اعادة التوازن الى حرارة الأرض وتحسن الغلاف الجوي.

جارتي هاجر يئست من أن يكون أحد أبنائها هو النبي المنتظر. سألتها لماذا؟ فأخبرتني أنها سمعت من شخص قدم من الفلبين أن النبي المنتظر سيولد من بطن رجل. ضحكت مما قالته.

يبدو أن الله أباد بني لوط لأجل ألا يحدث ذلك، فهل يفعلها مجددًا؟.

ذهبت الى مصر وحيدًا، وعدتُ بعد شهر أبًا. وظل الشرط القاسي الذي وضعه الدكتور في الأوراق، يمرّ في ذاكرتي لأسابيع طويلة، مما يجعلني أبتسم على فترات متقطعة، دون أن أنتبه لذلك،

لولا أن نبّهتني ماري التي أصرّت على المجيء معي الى بيروت لفترة ربما تطول أو تقصر.

لم أكن أعي أن وجود ماري معي في هذه الفترة بالذات، مهم وضروري. ولم أكن أدرك تمامًا مدى ما تتمتع به من حنان في تربيتها ورعايتها لــ "حبيبتي" هند.

عندما ألحّت بالمجيء معي الى بيروت، ظننت في البداية أنها لن تتمكن من فصل احساسها بأن هذه الطفلة هي "حبيبتي". لكن ماري كانت أكثر حسمًا مني في هذا الموقف، حيث تمكنت بقرار نهائي أن تبين لنفسها ولي أن هذه الــ "هند" طفلة صغيرة بحاجة الى عطف الأب وحنان الأم.

ذات يوم سألت ماري إذا وجدت شريحة زوجها، هل ستتخذ القرار نفسه الذي أخذته بالنسبة الى هند، وتعيده الى الحياة؟. جاء ردها هادئا، وسريعا: لا.

لم تصدر مني أي ردة فعل. واحترمــت صــمتها. بعــد أيــام قليلة، كنا نشرب القهــوة علــى الــشرفة، فقالــت لــي: لا تتخيــل الأيام التي عشتها، وأنا أفكر بــالموقف الــذي كنــت ســأتخذه لــو كانت شريحة زوجي بــين يــدي. خاصــة بعــد أن قابلتــك فــي الاسكندرية، وأخبرتني بما قــررت أن تفعلــه أنــت مــع شــريحة هند.

صمت ران علينا فيما كان البحر الماثل أمام أعيننا ساكنا، وشاسعا لا نهاية له.

قالت: لا أجرؤ على تحدي المشيئة الالهية... أو ربما، ألم الفراق الذي ينتابك عندما تفقد شخصًا تحبه، يصبح باهتًا وغير موجع، عندما يتملكك الشعور أنه بامكانك أن تعيد ما فقدته بكلمة منك. وأنا أردت آنذاك مواصلة الحزن، والاحساس بالفقد.

بعد لحظات قليلة، تأملتني، وقالت: الموت سهل، إنما صنع الحياة فعل صعب.

والآن؟ سألتها.

- أعيش معك، وأربّي "حبيبتنا" هند.

انتهت اجازة ماري الاضطرارية التي امتدت لسنتين. عادت الى مصر، وظلت تزورنا كلما سمحت ظروفها بذلك. كنت ألتقيها بمصر في كل مرة أذهب بها الى المستشفى لمتابعة الفحص الدوري لهند.

في احدى الزيارات، سألت ماري: لماذا لم نتزوج؟. ضحكت، وقالت لي: لا أعرف. وأخذت هندًا بين يديها وبدأت تلاعبها.

عندما كنت أضم هندًا الى صدري، كان يخالطني شعوران: الأبوة والعشق. وكنت دائما ألوم نفسي على هذا الشعور، وأخاف منه في الوقت نفسه.

.xxix

سبع سنوات كان عمرها، عندما زرنا فيها موقع الزلزال معًا للمرة الأولى.

اجتمعت في لحظة ما الـــ "هندان".. الأولى مدفونة في مكان ما تحت التراب، والأخرى لا تترك يدي.. حينما مررنا حيث كان مكتب عملها في الحياة السابقة، ضغطت على يدي. توقفت دون سبب ودون أن تقول شيئا وأخذت تتأمل في المكان.

سألتها عن سبب وقوفها، لم تجب. وواصلت التحديق في الحديقة التي ارتفعت فوق جثث ضحايا الزلزال.. هناك تحت هذا التراب.. ربما كانت "جثتها".

مع اقترابنا من الحديقة أكثر ركضت صوب لائحة الأسماء... كأنها تبحث عن اسم شخص ما.

دفعتني وأشارت بيدها: "بابا... هذا مثل اسمي".

انحنيت وضممتها الى صدري، وبكلمات مقتضبة قلت: "ماما.. ربما تكون هنا".

لم تعلق، أو لم تشأ أن تحرجني أكثر بعد أن سألتني: "بابا.. لماذا تبكي؟".

جاءت من المدرسة باكرًا ذات يوم. ظلت جالسة على غير عادتها عندما عدت من العمل ولم تركض نحوي لتقبلني؛ فخذاها مشدودان الى بعضهما البعض، وتصرفاتها مرتبكة.

بقيت واقفا قرب الباب أشير الى خدي.. بسرعة طبعت قبلة خاطفة على خدي وعادت الى مقعدها. سألتها عن سبب العودة الباكرة، بررت ذلك بأن المدرسة تجري صيانة على النظام. دعوتها الى طاولة الطعام، لكنها "غير جائعة" كما قالت. اقتربت منها ووضعت يدي على جبينها، سارعت للقول: "لست مريضة".

انتظرتها لتدخل الى غرفتها واتصلت بمدرستها. عندما أخبرتني المديرة أن ارتباك هند بسبب العادة الشهرية، ارتسمت على فمي ابتسامة خاطفة... وانتابتني بعض الأفكار.. في كل مرة أحاول أن أستعيدها أؤنب نفسي.

هند أصبحت امرأة. قلت لماري ذلك دون أي تفاصيل أخرى. سألتني: بماذا تشعر؟ لم أجب. سؤالها آلمني. على الرغم من أنها انتبهت لاحقًا الى ذلك، سعت لتوضيح قصدها من طرح السؤال، غير أنني بدأت انتبه ان مشاعر الأبوة بدأت تسيطر أكثر فأكثر على مشاعر العاشق.

مروان أصبح له "أتباع"، بلغ صيته العالم، فلا يمر أسبوع إلا ويسافر الى بلد ما بدعوة من أحد المشاهير "ليرى" له. واتحاده أصبح يضم العشرات من الجنسين.

زادت شهرته بعدما انشأ شبكة اعلامية يهاجم عبرها العلمانيين.

سألته بعد أن زرته في مكتبه: "هل يمكن تعلم "الرؤيا"؟".

ضحك، وسارع مستدركًا:

"لكن الكثير من طلابي يرسبون. مهمتي أن أجهّز لهم كيفية النظر من "النوافذ" ليرصدوا العالم".

تعرض أكثر من مرة لمحاولة القتل بسبب "صحة رؤاه"، وفي الوقت نفسه لم يعد بمقدور أحد ان يتنبأ بمقدار ثروته. في كل مرة كنت أدعوه فيها للحذر، يبتسم ويخبرني أن وقته لم يحن بعد.

ألتقي به بين الحين والآخر.

عندما أخبرته عن "المدونات"، ابتسم كعادته، وقال:

"كنت "أرى" أنك تفعل ذلك لكي تتطهر... ولن تتطهر من عشق هند".

لم يكن مروان بحاجة الى دعاية لكي يخوض الانتخابات النيابية ويفوز بها، وساعده في ذلك ليس شهرته في "الرؤيا" وحسب بل دعواته التي كان يطلقها باستمرار للعودة الى "أن نحلم" و"أن نتخيل" وان "نواجه أسلاك حياتنا اليومية بابتسامة وحب" كما كان يقول.

هذه الكلمات كان لها أبلغ الأثر في الناس، ولا سيما النساء. وعندما شعر أنه بدأ يخسر من شعبيته التي كسبها قبل أن يصبح نائبا، في عمله السياسي، استقال من منصبه بعد أن ألقى خطبة ألهبت المشاعر ورفعت من محبته لدى الناس.. معظم الناس. ذكر فيها أن كثيرًا من السياسيين بعيدون عن همّ الشرائح الاجتماعية والسعي الجاد لمواجهة المخاطر التي تتهددهم، ومما أكد عليه في خطابه أن المطلوب التقليل من مساحة الآلة في حياتنا والعودة تدريجيا الى الانسان والاعتماد عليه في كثير من شؤون الحياة.

سعى مروان بشتى الوسائل الى أن يربطني بانسانة أخرى بعد هند، كان يدعوني الى أماكن كثيرة وهناك يقدمني الى احداهن، وكل ذلك، "كان صدفة" كما يردد: "أنظر الى هذه الصدفة الرائعة، جميلة.. شعر أسود طبيعي طويل، عينان صادقتان.. قوام أميرة أحلام..". ويمضي في مدحه للفتاة ليجعلني التمس موافقة مبدئية. فأبتسم وألزم الصمت.

سألني مروان: كيف تعرّف الحب؟

بلا تردد أجبته: الحب هو أن تريد الذهاب غربًا فتجد نفسك تتجه شرقًا.

.XXX

جميلة كما عرفتها، حنونة كما أذكرها، وحكيمة في قرارتها كما عهدتها.

هند تعود إليّ كلها بعد عشرين سنة، حيث اكتملت الملامح، والصوت يعود بالنبرة نفسها.. طريقة مشيتها، الاهتمامات، كل شيء.. كل شيء يعود، بعد أن غاب ذات يوم الى الأبد.

أما أنا فبدأت أنتبه الى أنني أعبر باب الشيخوخة.

في يوم، أذكر كان نهار سبت، جاءت متوترة وخائفة، سألتني بحدّة: من هذا "سعيد"؟

تابعت كلامها بتقطع: فجأة هجم علي في الشارع وأراد أن يعانقني، وبدأ يبكي.

من هو "سعيد"؟ من أين يعرفني؟.

سؤال ثم سؤال، وأنا أنتظر أن ألتقط جوابًا مناسبًا لكل هذا. لكن، كل ما قلته، وبصوت خافت: "لا أعرف".

قالت: ضمّني فجأة الى صدره، وبدأ يصرخ، "غير معقول"، "غير معقول"، هند أنت حيّة... حيّة. وأنا مذهولة، أدفعه عني، وأقول له: من أنت؟ من أنت؟ فقال إنه عمّي...

وبدأ يبكي. لقد أحزنني حاله، وعندما تمكنت من الافلات منه بدأت أركض دون أن ألتفت خلفي، وهو يصرخ: هند... هند... هند... أنا عمك سعيد.

لم تمر سوى ساعات قليلة، لتسألني: كيف ماتت أمي؟

أجبتها باستغراب: قلت لك .. ماتت بالزلزال.

وكأنها لم تقتنع، فسألتني: وأنت أين كنت؟ وتابعت: لماذا أسميتني على اسم أمي؟

اقتربت منها، بعد ان انسابت من عيني دمعة هادئة:

"لأنني أحبها وأحبك".

لا أعرف لماذا الى الآن، لم أقل لها من "هي". لماذا التزمت الصمت؟.

ربما، لأنني كنت أراهن أن ذاكرتها ستعود مجددًا، وستذكرني. لكن مع اشراقة كل يوم جديد، أزداد قناعة أن رهاني كان خاسرًا. وأنني لن أعود حبيبها مرة أخرى.

سألتني: لماذا نذهب الى المستشفى في القاهرة؟

التزمت الصمت، وكل ما قلته: إنك تعانين من مرض ما، والطبيب الذي يعالجك موجود في القاهرة.

أعرف أنها لم تقتنع بجوابي. وأعرف أن كذبي أصبح "شاسعا".

بعد أن تخطى عمرها العشرين، همس الدكتور عبد الكريم بأذني: "مبروك، يمكنها أن تواصل حياتها دون أن تزورني بعد الآن". وأردف قائلاً:"... وأن تتزوج أيضا".

وضعت قبلة صغيرة على جبين هند، وذهبنا مع ماري الى المطعم نفسه الذي زرناه جميعًا في يوم ما. أنا وماري مسكونان بالارتباك والعمر الكثير، بينما هند تفيض بالحياة.

لكم سألت نفسي: هل أخطأت؟ هل يجب أن أندم على ما فعلته؟

ماذا فعلت؟ أنا بعد منتصف الطريق وهي في بدايته. أنا أضيق بالحياة والمواربة والتبريرات غير المقنعة، وهي تتسع بالأمل والفرح والمواجهة.. والأسئلة.

قالت لي:

"بابا، اليوم التقيت شابًا يشبهك كثيرًا، مع فارق بسيط، أنه يصغرك بثلاثين عاما".

ضحكت، ثم طوقتني بيديها، وأخذت تقبلني على جبيني وخدي.



"... ولسوف تسمع في فمي العربية والتركية
والقشتالية والبربرية والعبرية واللاتينية
والعامية الإيطالية، لأن جميع اللغات، وكل
الصلوات ملك يدي. ولكنني لا أنتمي إلى أي منها.
فأنا لله وللتراب، وإليهما راجع في يوم قريب".
(أمين معلوف)

"أنا لا أكون إلا في الأرض،
وكل وجود لي خارجها، إنما
هو ضياع وتيه نهائي، لتكن
الأرض داخلي،
تكتبني وأكتبها".
"... فتتشكل السطور دروبًا ومنازل،
والكلمات حصى وذرات تراب،
وتتجسد القصيدة – الأرض ".
(محمود درويش)

ورقة أخيرة... ربما

مشهد:

"متى يُرفع عنّي هذا الكأس وأمضي الى الطريق.
ثمة ولادة ثانية خلف تل الجلجلة، وفيه أنا وأنت وحبّنا الكبير.
يا وجعي عندما أحياني أمل، فمشيتُ لأشهد، وعشتُ لأقترن بك، وتكون حبيبي للأبد".

(هند: ذاكرة: سري: ملف: ورقة أخيرة ربما)

.xxxi

لمَ لا أقصقص هذا الحَر؟ أنسج لحبيبي كنزةً من صقيعي.

في بيتي الطيب، أبحث عن قليلها.

ها هي الظهيرة، وأنا وحيدٌ إلا منّي.

وها هي رؤيا مروان تتحقق: "يد هند تفيض نورا، وهي تضعها على جبيني المزدحم بالتجاعيد".

.xxxii

يقال إن هندا تزوجت.

يقال إنها أنجبت طفلاً... يشبهني.

يقال إنها تناديني: "بابا".

ويقال إنها لا تذكر شيئًا من حياتها السابقة، ولا تعرف غير حياتها الحالية.

فيما أنا، أذكر الحياتين...

وأذكر أني أحببتها مرتين: حبيبة وابنة.

...

هند سافرت مع زوجها إلى المغرب، حيث يعمل، وهناك تمكنت من العمل في قسم "العلوم المستقبلية" في أحد المعاهد.

.xxxiii

لعله من المؤلم أن نتخذ قرارات صعبة في مسائل سعينا لتحقيقها سابقا..

لكن هذه هي الحياة.. نعيشها، عسى أن نتمكن من وضع حدّ لنزيف ما نحب.

.xxxiv

الآن..

أجلس على هذه الشرفة، أتأمل في هذا الماء... وابتسم.



ابتسمتُ بهدوءِ المخذول، وأرخيتُ ظهري على الكرسي. ما هي إلا ثوان... وتسقط من عيني دمعة.

للمرة الأولى أبكي "هندًا". للمرة الأولى أحسستُ أنني فقدتها، أن مشوارنا معًا انتهى فعلاً.

هل الدمعة رسالة اعتذارٍ إلى الذين نتّجه لنسيانهم؟

سؤالٌ بحجم الهوةِ التي اتسعت بين واقعي وذاكرتي، وبَتّ كمَن يرى وهو نائمٌ أو حالم.. لا فرق، أو لا معنى الآن للدخول في المعاني... فالبابُ مشرّعٌ على سماءٍ من الكلامِ غير المحمّلِ لمرسَلٍ ما.

دار الحداثة - بيروت

ذاكرة النّاس - الجزائر